مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»

ربيع الأول 1440هـ – نوفمبر 2018م

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

من الأطروحات التي أنجزها العُمانيون في الخارج رسالة دكتوراه بعنوان «مشكلات النقل الحضري في منطقة مسقط»، قدمها الدكتور محمد بن عوض الرواس لجامعة سالفورد في بريطانيا سنة ١٩٩٣.

يقول الباحث في ملخص دراسته إنّ اقتصاد عُمان، كان تقليدياً في طابعه قبل تطوير قطاع النفط الذي أدى إلى التحولات الهيكلية الحالية. وقد مكن الازدهار الاقتصادي الشعب من امتلاك وسائل نقل خاصة بهم؛ مما أدى إلى نمو سريع في عدد المركبات في البلد، خاصة في مسقط العاصمة. والخدمات الأساسية المجانية مثل الصحة، والتعليم، دون ضرائب ورسوم أدت إلى ارتفاع الدخل المنزلي المُتاح. لذلك شهدت مسقط تغيرات سريعة متتالية في استخدام الأراضي، والتوسع في المناطق الحضرية، والأسر التي تملك سيارات متعددة.

وفي العقدين الماضيين زاد عدد سكان مسقط بشكل كبير، وكان هذا النمو السكاني مصحوبًا بتوسع كبير في حدودها لتوفير المنازل وأماكن العمل وغيرها من المرافق، كما أن الطبيعة الطبوغرافية للمنطقة حدت من الأرض المسطحة المتاحة للسكن والمحلات التجارية والمدارس، وعناصر أخرى من البنية التحتية. ونتج عن هذا التنافس على المكان ضيق الأراضي المخصصة لمواقف السيارات في المراكز الحيوية الكبرى؛ بل أسفر ذلك عن نقص حاد في المواقف بشكل عام في المنطقة. ورافق التوسع في منطقة مسقط تغييرات في العمالة، والنمط السكني. وأدى ذلك إلى زيادة كبيرة في العدد من المركبات والرحلات والتنقل. وعليه، فإنّ الحاجة إلى خدمات النقل الفعّالة والمرافق أصبحت أكبر من أي وقت مضى. كما أن الخصائص الطوبوغرافية صعّبت من توفير وسائل النقل الكافية. وتخطيط التنمية أهمل أهمية تنظيم الأنشطة الحضرية بطريقة تجعل الحاجة لحركة المركبات تتقلص إلى حد كبير. كما أدى ذلك إلى انخفاض كثافة المناطق السكانية مع أنماط من الشوارع في الغالب غير مصممة لخدمات النقل العام.

وعليه فإنّ الباحث هدف من هذه الدراسة إلى مناقشة مشكلات النقل الحضري في مسقط وسعى تحديدًا للإجابة على الأسئلة الآتية:

ما خصائص التنقل في مسقط؟

إلى أي مدى تؤدي الخصائص الطوبوغرافية الطبيعية إلى إعاقة تطور شبكة الطرق فيها؟

كيف تخدم الشبكة القائمة احتياجات المنطقة؟

إلى أي مدى يمكنها أن تستوعب حركة المرور؟

هل الطرق الرئيسة المقترحة ستحل المشكلات الحالية للازدحام المروري وتخفف من المشكلات المُستقبلية؟

ما أهم أسباب الحوادث المرورية؟

ما مدى توفر مواقف السيارات المناسبة في المراكز الحيوية الرئيسة؟

ما دور حافلات شركة النقل الوطنية العمانية داخل نظام النقل العام؟

ويؤكد الباحث أنّ منطقة مسقط تواجه مشكلات في الازدحام المروري، والحوادث، وشدة الحاجة لمرافق وقوف السيارات، وعدم كفاية وسائل النقل العام. والوضع معرّض للتدهور بشكل حاد في السنوات القليلة المُقبلة، ما لم تتخذ إجراءات فعالة. ويرى أن هناك حاجة ماسة إلى دراسة يمكنها أن توفر حلولاً عملية فورية وتقترح مبادئ توجيهية لسياسة تضمن توسيع نظام النقل وتحسينه لتلبية الاحتياجات الناشئة عن النمو المستقبلي.

وقد سعى الباحث في هذه الدراسة إلى تحديد العوامل التي تسهم في مشكلات المرور القائمة وتوفير معلومات مفيدة يُمكن أن تساعد مخططي حركة المرور وصناع القرار في فهم طبيعة هذه المشكلات، وإيجاد الحلول والمبادئ التوجيهية للسياسة المستقبلية.

hilalalhajri@hotmail.com

- مستقبل البشرية
- ميتشيو كاكو
- كيف تنتهي الديمقراطية؟
- ديفيد رونسيمان
- فلسفة نهاية الفن
- ستيفن سنايدر
- ٢١ درسا للقرن الحادي والعشرون
- يوفال نوح هراري
- الناس في الكهف
- رينيه تن بوس
- غرامشي في العالم العربي
- مجموعة مؤلفين
- بلاد خارج الحداثة
- فلاديسلاف إنوزيمتسيف
- أوروبا والجغرافيون
- جان شارل دوسين
- الأسلحة الكونية
- ليعقوب كاتز وأمير بوحبوط
- «على هامش حياة جماعة آميش»..
- لإيه.بي. مهر علي

إصدارات عالمية جديدة

من الصفحة 22 إلى 23

مستقبل البشرية: استصلاح المريخ، السفر عبر الكواكب، الخلود ومصير الإنسان خارج كوكب الأرض

بلقيس البيمانية *

بعد آلاف السنين من توسّع البشرية على كوكب الأرض؛ أصبح الخروج من الكوكب ضرورة ملحّة بسبب التغيّرات المناخية وطريقة استنزاف الموارد والكوارث الطبيعية والبشرية. وهنا يأتي دور العقل البشري في البحث عن حياة في الكواكب الأخرى وتهيئتها، وتبرز من خلالها أهمية الخيال العلمي الذي يشق طريقه ليصبح حقيقة، كأن نشهد تطورًا ورُقيًّا مذهلًا في الروبوتات، أو استخدامًا مذهلًا لتقنية النانو والتقنية الحيوية في بناء مدن مهيئة وصالحة للعيش، أو الوصول للنجوم القريبة باستخدام مركبات فضائية مجهرية تستخدم أشعة الليزر، وأن البشرية ربما قد تنجح في تحقيق الخلود !!!

يتحدّث الكاتب في المقدّمة عن الكارثة التي حلت قبل ٧٥ ألف سنة وهي حادثة انفجار بركان «توبا» الكبير في إندونيسيا والذي يعتبر أكبر وأعنف انفجار بركاني منذ ما يقارب ٢٥ مليون سنة مضت. خلّف البركان خسائر كبيرة بسبب ما تركه من كميات ضخمة من الرماد والدخان والكتل الصخرية والوحل والأوساخ التي غطت جميعها آلاف الأميال التي وصلت ماليزيا والهند بسُمك ٣٠ قدم! كما وصل الدخان السام لقارة إفريقيا تاركاً وراءه طريقاً مليئاً بالموتى والدمار وموت النباتات والحياة البرية. ونتيجة لهذا؛ تبقت كميات قليلة جداً من الطعام ومات الأغلبية بسبب المجاعة.

يشبّه الكاتب كارثة توبا بال«بروفة» لمسرحية ربما ستحدث في المستقبل، ألا وهي تعرض كوكب الأرض لكوارث أكثر عنفاً يعقبها خسائر لا يمكن تخيّلها! حيث استند في توقعاته على الحدث الذي وقعت أحداثه عام ١٩٩٢م؛ حيث اكتُشف كوكب جديد يدور حول نجم خارج نظامنا الشمسي، وكان هذا خبراً مفرحاً للعلماء لجعلهم يفهمون الكون بشكل أفضل باكتشافهم وجود مجرات غير مجرتنا. ولكن الخبر المحزن هو أن ذلك الكوكب كان يدور حول نجم كان نابضاً ثم حصل انفجار تسبب بموت كل شي على وجه ذلك الكوكب بسبب الانفجار المدمر للطاقة النووية. الأمر الذي دفع المؤلف لتخيل مجموعة من سكان ذلك الكوكب يهمّون بمغادرة كوكبهم في عدد هائل من سفن الفضاء التي ستنقلهم إلى مجرة أخرى. فهل يا ترى نستطيع النجاة من الكوارث المستقبلية؟ ويرى أن علينا مغادرة كوكب الأرض لأن هذا -برأيه- الحل الوحيد لكوارث نحن من تسبب بحدوثها؛ كالاحتباس الحراري والحروب الحديثة والأسلحة النووية ووجود أمراض تنتقل بسرعة كبيرة كالإيدز والإيبولا، فضلاً عن الزيادة الهائلة في أعداد السكان التي تؤدي إلى استنزاف موارد الأرض. وهنا شخصيًا أختلف مع الكاتب في فكرته، والتبرير أنّ جميع تلك الكوارث وإن لم تكن قابلة للحل نهائيًا؛ ولكن بالإمكان التخفيف والتقليل من آثارها على البشرية دون الحاجة لفرضية ضرورة مغادرة كوكب الأرض للنجاة من تلك الكوارث، فالجهود العالمية في مكافحة الاحتباس الحراري والأمراض واضحة وملموسة، والعلم في مراحله الواسعة لمزيد من التقدّم والرقيّ.

الفصل الأول: (مغادرة كوكب الأرض). يركّز هذا الفصل على جهود الشركات والحكومات في الخطوة الأولى لمغادرة الأرض وهي إعداد المركبات الفضائية للانطلاق. يذكر الكاتب في بداية الفصل أن أول شخص كرّس حياته لصناعة أول مركبة فضائية كانت تعمل بالوقود يُدعى روبرت غودارد، وهو أول شخص فكّر بالسفر للفضاء واكتشاف الكوكب الأحمر (المريخ) حين تسلق شجرة توت في العام ١٨٩٩م ليأتيه هذا الإلهام، قوبل روبرت آنذاك بالسخرية من فكرة السفر عبر الفضاء والعيش فيه وفقًا لما نقلته صحيفة نيويورك تايمز، وبالرغم من أنه درس كتاب نيوتن «مبادئ الرياضيات» إلا أن الناس سخروا منه وقالوا أنه لا يفرّق بين مبدأ الفعل ورد الفعل، ولم يعلموا أنه وفقاً لهذا المبدأ انطلق الصاروخ؛ فالفعل يكمن في خروج الغاز المشتعل من مكان واحد من الصاروخ، بينما رد الفعل يكمن في انطلاق الصاروخ للأعلى. توفي هذا العالم عام ١٩٤٥م قبل أن يقرأ الاعتذار الذي كتبه محررو صحيفة النيويورك تايمز بعد هبوط المركبة «أبولو» بنجاح على سطح القمر في ١٩٦٩م!

هناك مجموعة من العلماء الذين ساهموا في تطوير الصواريخ وتمكينها من الانطلاق بسرعة أكبر للسفر عبر الفضاء، حيث يؤمن علماء وكالة ناسا بأنّ اكتشاف القمر هو السبيل لاكتشاف المريخ، لذلك فإن المَهمة القادمة هي تجهيز مركبة لإجراء رحلة جوية مأهولة إلى القمر في ٢٠٢٠م بمواصفات أفضل من سابقتها والتي كانت تهدف لتحقيق غاية مقدرة الإنسان على الوصول، ولكن الغاية الآن هي أن يقضي رواد الفضاء وقتاً أطول لاكتشاف القمر واكتشاف الظروف التي قد يتعرض لها الإنسان خارج كوكب الأرض، والتأكّد من مقدرتهم على زراعة المحاصيل باستخدام الحدائق المائية، ووجود الماء، وإنتاج الأوكسجين بواسطة عدد من التفاعلات الكيميائية. وهذه المرة، سيتمكن الرواد من استخدام الهواتف الذكية واستخدام الانترنت لأغراض التواصل مع عائلاتهم ومع محطة الفضاء الدولية ومتابعة آخر الأخبار، كما سيكون من ضمن الطاقم مجموعة أطباء وروبوتات مخصصة لإجراء عمليات جراحية يتحكم بعملها جرّاحون في الأرض باستخدام التحكّم عن بُعد متى ما دعت الحاجة لها.

هنالك الكثير من العقبات التي ستواجهها المركبة مثل الفترة التي تحتاجها للوصول، والمشاكل التي يتعرّض لها روّاد الفضاء مثل ضمور العضلات والإشعاعات وتلف العصب البصري، ولذلك لا يعتبر السفر إلى الفضاء نزهة وإنما مخاطرة وتحدي، ولهذا تعمل ناسا على إيجاد حلول لهذه المشاكل.

في عام ٢٠١٧م وبعد أشهر من التفكير المكثف؛ كشفت وكالة الفضاء «ناسا» و «بوينغ» النقاب عن خطة الوصول إلى المريخ، مع الخطوات اللازمة لإرسال رواد الفضاء لهذا الكوكب الأحمر. تقضي الخطة بإطلاق المركبة أس إل إس/ أوريون في العام القادم ٢٠١٩م، ولن تكون مأهولة برواد الفضاء وإنما مهمتها ستنحصر على الدوران حول الكوكب، وبعد أربع سنوات ستعود هذه المركبة لتدور حول الكوكب ولكن هذه المرة ستكون مأهولة برواد الفضاء لمهمة مدتها ثلاثة أسابيع فقط، ثم ستبدأ ناسا في بناء محطة فضاء قمرية والتي أطلقت عليها اسم «محطة الفضاء السحيق» (Deep Space Gateway) مهمتها تزويد رواد الفضاء بما يلزمهم قبل السفر للمريخ أو للكواكب الأخرى، وستكون جاهزة بحلول عام ٢٠٢٦م. ثم ينتقل الكاتب للحديث عن المركبة التي سترسل الرواد إلى المريخ والتي أُطلق عليها «مركبة النقل الفضائي السحيق» (Deep Space Transport) والتي ستنطلق في رحلتها التجريبية الأولى لتدور حول المريخ عام ٢٠٢٣م. ولكن إلون ماسك، المهندس والمخترع والمدير التنفيذي الذي أسس أول شركة للسفر عبر الفضاء «Space X» يجهّز حاليًا مركبته الفضائية «مركبة التنين الفضائية» للانطلاق إلى كوكب المريخ عام ٢٠٢٢م، بينما ناسا تعتبر ذلك تسرُّعاً خصوصاً أن مركبته أصغر حجماً من مركبة النقل الفضائي السحيق.

وفقًا لخطة ناسا فإنّه عندما تصل المركبة لتدور حول كوكب المريخ ستهبط على سطح الكوكب وسيبدأ الرواد والعلماء بإجراء التجارب كالبحث عن وجود آثار للماء والحياة الميكروبية ووضع الألواح الشمسية لغرض إنتاج

الطاقة، والتنقيب عن وجود الجليد تحت الأرض الذي يمكن استخدامه لاحقاً كمصدر مهم لماء الشرب والأوكسجين للتنفس والهيدروجين للطاقة. الكاتب هنا سعيد ومتفائل جداً- رغم صعوبة المهمة- بنجاح هذه الرحلة التي ستكون أول رحلة مأهولة إلى المريخ خلال العقدين القادمين. وبعدها سيتوجب علينا التغلب على العقبة الثانية: استصلاح المريخ ليصبح وطننا الجديد.

يعتبر طول اليوم في كوكب المريخ كطول اليوم في كوكب الأرض، فضلاً عن أن سرعة دوران المريخ في مداره حول الشمس هي نفس سرعة دوران الأرض، ولكن جاذبية المريخ تعادل ٤٠٪ فقط من جاذبية كوكب الأرض مما يدفع رواد الفضاء للتكيف تحت جاذبية أقل من التي اعتادوا عليها. إضافة إلى التكيّف للعيش تحت درجات حرارة منخفضة جداً والتي قد تصل في المساء لما يقارب ال١٢٧ درجة سيليزية تحت الصفر. لذا يتوجب عليهم النجاح في إنتاج الطاقة للحصول على الجو الملائم لهم، كما سيحتاج رواد الفضاء لممارسة الرياضة على المريخ حتى يقللوا من فرصة ضمور عضلاتهم وعظامهم. ينتهي هذا الفصل بذكر خطة العلماء المستقبلية للخروج إلى ما وراء النظام الشمسي وذلك بالتوقف في أقمار المشتري وزحل والتي يتوفّر فيها الماء، فيتم التوقف فيها كمحطات قبل السفر إلى خارج المجرة!

الفصل الثاني: (السفر عبر الكواكب). ركّز هذا الفصل على الدور الذي ستلعبه الروبوتات في عملية السفر إلى الفضاء، واستخدام تقنيات تقنية النانو والذكاء الاصطناعي لتقليل التكلفة وتوفير الموارد في المريخ. ستصنع الحواسيب في المستقبل من تقنية النانو التي تعتبر أقوى من الفولاذ والماس بمائتي مرة وأقل تكلفة من المواد الأخرى. كما سيتم تصنيع واستخدام آليون ذات تحكم ذاتي لأغراض اكتشاف وإعمار الكوكب، حيث يمكنها أن تحمل أغراضًا عديدة وأوزانًا لا تستطيع النفس البشرية حملها وبتكلفة أقل وبشكل أسرع، وحتى إن تعرّض أحدها لحادث فيمكن استبداله بروبوت آخر، ناهيك عن قدرتها على تحمّل درجات عالية من الحرارة والعيش في درجات حرارة منخفضة للغاية لا يستطيع رائد الفضاء البشري العيش فيها.

أمّا أهمية الذكاء الاصطناعي فسيحتاج لفترة طويلة للتطوير والتحسين من أجل قيام الروبوتات بمهامها على أكمل وجه، ويستشهد بمسابقة وكالة مشاريع البحوث المتطورة الدفاعية (DARPA) والتي طرحتها عام ٢٠١٣م لبناء أفضل روبوت يقوم بمهمة تجميع النفايات وتنظيف الركام الإشعاعي في فوكوشيما بعد الزلزال الذي ضرب اليابان عام ٢٠١١ وتسبب بتسرب إشعاعي من مفاعل فوكوشيما، وللأسف لم ينجح كل المتسابقين لأن روبوتاتهم لم تقم بالمهمة، واتضح أن الذكاء الاصطناعي ليس سهلًا، وقد يأخذ تصنيع الروبوتات المرجوة فترة طويلة. ينتقل بعدها للحديث عن روبوتات قادرة على استنساخ نفسها ويسميها بـ (Self-Replicating Robots) وهذا تقدم كبير جداً سيوفر الوقت والجهد في صنع روبوتات جديدة طبق الأصل من القديمة.

تنصّ نظرية الوعي بالزمكان (Space-time theory of consciousness) على أن النباتات والحيوانات

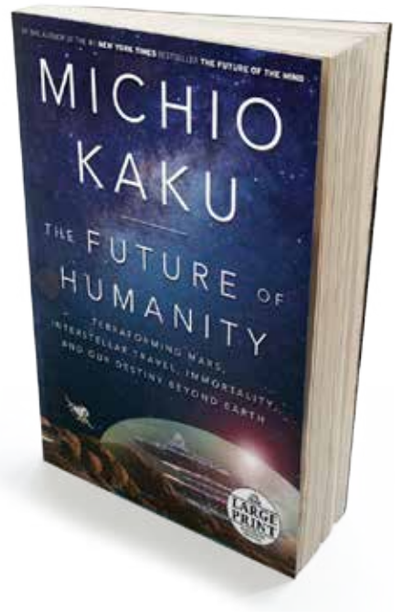

والآلات يمكن أن تكون مدركة، فالزواحف مثلاً مدركة بالمكان الذي تعيش فيه ولكن إدراكها محدود. بينما إدراك الإنسان أكبر بكثير فلديه وعي بالوقت، فنحن نعرف معنى غداً ونعرف الماضي والمستقبل وهذا ما لا تدركه هذه الكائنات. ثم يقول أنّ بالإمكان برمجة الروبوتات لأن تصبح مدركة لما حولها، ولكن الخطورة تكمن في أن الروبوتات قد تشعر أنها مهددة من البشر فيتنامى لديها الرغبة لقتل البشرية، ولحل هذه المشكلة يقترح وضع رقاقة لإفشال عمل إحدى هذه الروبوتات عند تطور أفكار خطيرة وقاتلة لديها.

ينتهي الفصل الثاني بالحديث عن الكواكب التي تشبه الأرض. حيث رصد علماء الفلك كواكب ذات طبيعة صخرية تشبه الأرض ويمكن للإنسان العيش فيها، حيث تم حتى الآن اكتشاف مائة مليار نجم في مجرتنا بالإضافة إلى عشرين مليار كوكب شبيه بالأرض. وربما سيتم اكتشاف عدد أكبر من هذه الكواكب الموجودة في مجرة درب التبانة.

رغم كل ما ذكره الكاتب إلا أن الخروج من الكرة الأرضية والعيش في كواكب أخرى لن يحل مشاكلنا، وإنما بعد استعمار كواكب أخرى وبناء حضارات جديدة هناك سنواجه بعد ملايين السنين ما نواجهه في كوكب الأرض من دمار وكوارث وارتفاع في درجات الحرارة وغيرها، وبالتالي أرى أن فكرة الخروج من الأرض ما هو إلا حلا مؤقتا للأزمات التي يعاني منها الإنسان.

عنوان الفصل الثالث: (الحياة في الكون). يتحدث هنا عن الخلود ومصير الإنسان خارج كوكب الأرض، وذلك لأن المركبات الفضائية تحتاج للعديد من السنوات للوصول إلى الكواكب البعيدة جداً، ويجب إيجاد طرق لحل هذه المشكلة. وقد ذكر هنا قصة الفيلم «عُمر أدلين» التي تعرضت فيه أدلين لصعقة كهربائية لتوقف شيخوختها فأصبحت شابة، وكذلك فيلم «٢٠٠١» حيث تم تجميد أجساد رواد الفضاء لدرجة الصفر سيليزية في حجيرات في المركبة المتجهة إلى كوكب المشتري، فيتوقف نموهم ولا يشيخون. ولكن هل هذا يمكن أن يحدث في الواقع؟ وهل يمكن للتقدم العلمي أن يوقف الشيخوخة؟ قام عدد من العلماء بدراسة مواد كيميائية مضادة للتجمد ولكن كانت النتائج سلبية لأن تلك المواد قد تؤدي إلى الوفاة.

إن أحد أهم الأحداث التي توصل إليها علماء الدماغ هي المقدرة على تخزين الذاكرة وتقليل أعراض مرض الزهايمر، حيث سيحتاج رواد الفضاء لمعرفة معلومات وبيانات هائلة عن الكوكب الذي سيسافرون إليه وطرائق استخدام آلات عديدة، وهذا يتطلب منهم حفظ معلومات وتفاصيل جمة، ولهذا يمكن بسهولة نسخ تلك البيانات من أدمغتهم بعد ذلك ونقلها إلى أدمغة رواد الفضاء في المستقبل. بعدها يتحدث عن حلم الإنسان في الطيران كالطيور وكيف أنه سيكون بإمكانه في الفضاء تحقيق ذلك الحلم وذلك بتطوير الحقائب النفاثة التي اخترعت في الحرب العالم الثانية.

ختامًا؛ لم يسبق أن اكتشف العلماء وجود حياة أخرى تعيش في كوكب آخر وإنما هذا فقط ما نراه في أفلام الخيال العلمي وأفلام الكارتون. ولذلك يجب أن نكون حذرين من أي مخلوق قد نجده خارج الأرض لأن تلك المخلوقات قد تكون متقدمة عنا تكنولوجياً ودفاعياً، وقد حذر من ذلك الفيزيائي الراحل ستيفين هوكينغ. ويظنّ الكاتب أنّ الكائنات الفضائية قد تكون مسالمة ولكن يجب أن نكون جاهزين فربما نجدها عكس ذلك.

ملاحظاتي عن الكتاب:

هدف المؤلف من كتابة هذا الكتاب هو إعطاء فكرة تفصيلية عن حياة مستدامة خارج كوكب الأرض.

المؤلف متفائل جداً بإمكانية البشر السفر في الفضاء والعيش خارج كوكب الأرض- وهذا ما تعكسه لغة الكتاب.

لغة الكتاب بسيطة بشكل عام وممتعة ومليئة بالمعلومات (ككتبه السابقة).

رتب الكاتب فصول الكتاب الثلاثة ترتيباً زمنياً منذ مرحلة مغادرة كوكب الأرض إلى العيش خارجه.

كلما اكتشف علماء الفلك مجرات ونجوم وكواكب وغيرها؛ أدركنا أكثر كم نحن صغار جداً مقارنة بهذا الكون العظيم، وأدركنا أن الذي نعرفه عن الكون أقل بكثير من الذي نجهله.

قد يكون هذا الكتاب دافعاً للقارئ لدراسة علم الفلك وعلم الفضاء والفيزياء.

ذكر أعداداً كبيرة من الأفلام التي تتحدث عن مواضيع الكتاب وعن السفر في الفضاء وعن الفضائيين، وهو ما يدلّ على اتّساع خيال الكاتب وربط أفكاره بما يشاهده ويقرؤه.

عنوان الكتاب: مستقبل البشرية: استصلاح المريخ، السفر عبر الكواكب، الخلود ومصير الإنسان خارج الأرض

المؤلف: ميتشيو كاكو

الناشر: دار بنجوين للنشر (Penguin Random House UK)

مكان النشر: المملكة المتحدة

لغة الكتاب: الإنجليزية

تاريخ النشر: ٢٠ فبراير ٢٠١٨

عدد الصفحات: ٣٥٢

* كاتبة عمانية

«كيف تنتهي الديمقراطية؟!».. لديفيد رونسيمان

مُحمَّد السالمي *

اكتسبتْ فكرة «حُكم الشعب» حضورا منذ أيام الديمقراطية الأثينية منذ القرن الخامس قبل الميلاد؛ حيث كان لجميع المواطنين الذكور في أثينا حقوق سياسية متساوية، وشاركوا في الديمقراطية المباشرة، وعاشوا في القرارات التي اتخذوها بأنفسهم. أما اليوم، وفي ظل الديمقراطية المباشرة النادرة، استُبدلت في معظم البلدان بنسخة من الديمقراطية حيث ينتخب المواطنون، الذكور والإناث، ممثليهم الذين يحكمون نيابة عنهم. كما كان لانهيار الشيوعية السوفييتية إنذار بربيع ديمقراطي جديد في البلدان التي كانت تحت سيطرة موسكو. لكن الديمقراطية في أوروبا ازدهرت مع اقتراب القرن العشرين، بينما الربيع العربي في القرن الجديد لم يدُم طويلاً قبل أن يتم سحقه. كما أثارت الأحداث الأخيرة في الولايات المتحدة وعدد من الدول الأوروبية والهند شكوكًا خطيرة حول صحة الديمقراطية حتى في أكثر الدول تقدمًا. هذه الأمثلة تخبرنا عن قوة وهشاشة الديمقراطية. في هذا الكتاب، يغطي رونسيمان المواقف التي ربما نشأت في الولايات المتحدة والدول الديمقراطية الأخرى التي قد تخلق فوضى في النظام الديمقراطي الذي نعرفه. لكن ما الذي نفهمه بالضبط من قبل النظام الديمقراطي؟ يناقش رونسيمان في كتابه فضائل الديمقراطيات وأهمية حرية التعبير والانتخابات، ويشير بأصبعه إلى شر المال والتلاعب من قبل النخبة القلائل بالمال والتكنولوجيا، ويشير إلى أنهما سلاح التدمير. يمكن لهذه الأسلحة التلاعب بالأخبار والانتخابات؛ حيث لديها القدرة على التصويت لنا على أساس معرفتها بأمورنا وما نحبه، إضافة لترددنا في ممارسة ذهننا الخاص. ديفيد رونسيمان هو أستاذ التاريخ والسياسة في جامعة كامبريدج، وأيضاً رئيس قسم السياسة والعلاقات الدولية في نفس الجامعة. تتمحور مؤلفاته حول التعددية في الأنظمة السياسية وأزمة الثقة في الديمقراطيات.

إنَّ أسلوبَ كتابة رونسيمان من الأشياء التي تحظَى بالأعجاب؛ فالقوة والبراعة والأناقة التي يُميز بها المفارقات والمخاطر التي تواجهها الديمقراطية تجعل كُتبه في مقدمة الكتب الحديثة حول هذا الموضوع. ولكن ما لا يقدمه هو الحلول، مع الاعتراف صراحة بأن ليس لديه أي منها أي بمعنى تشخيص بلا علاج. إنه يدرس البدائل ويجدها محقة. قد تبدو التجربة الصينية مع الرأسمالية الاستبدادية مغرية لأولئك الذين يعتقدون أن التوسع الاقتصادي هو كل ما يهم المجتمع، ولكن هل يستطيع نموذج بكين القمعي البقاء على قيد الحياة في اليوم الذي لا مفر منه عندما يتباطأ النمو؟ حكومة من قبل الخبراء، «الطبقة الأرستقراطية «، دعا إليها أفلاطون وما زال يروج لها أولئك الذين يعتبرون المواطنين أغبياء للغاية بحيث لا يمكن الوثوق بهم في اتخاذ القرارات. ولكن ما يجهله الكثيرون أن «المثقفين» يكونون هم أيضاً عرضة لارتكاب أخطاء فظيعة مثل الحشود. يبدو أن رونسيمان ينجذب إلى فكرة أن التقدم التكنولوجي يمكن أن يقدم شكلاً من أشكال «التحرر». يرى الكاتب أن الإنترنت، بعيداً عن كونها إكسير المساءلة والمشاركة الديمقراطية التي تخيلها اليوتوبيون ذات يوم، قد سممت البئر. تشجع الطوائف المعارضة نظريات المؤامرة في فقاقيع الصدى المتنافسة بدلاً من الانخراط في نقاش منطقي حول مجموعة متفق عليها من الحقائق. أصبحت الديمقراطية أكثر سمة للعصر، وفي الوقت نفسه أصبحت بلا أسنان. تتعثر الحكومات في وجه الانهيار العنيف من قبل عمالقة التكنولوجيا في وادي السليكون والمتفرجين الذين يخرجون من الكرملين. إن السياسيين على المدى القصير غير مناسبين لمهمة معالجة التهديدات الوجودية للإنسانية، مثل تغير المناخ؛ لأن التفكير في نهاية العالم «هو أكثر من أن تعالجه الديمقراطية».

ويرى رونسيمان أن الديمقراطيات الغربية تمر بأزمة منتصف العمر؛ حيث إنَّ هناك مجتمعات ديمقراطية مختلفة في مراحل مختلفة من حياتها. لكن هناك أدلة دامغة على أن المستقبل سيكون مختلفًا. الكتاب، هو دراسة لتدهور الديمقراطية بعد نجاحها في قرن. يستكشف رونسيمان العوامل التي تجعل الأزمة الحالية تختلف عن تلك التي واجهتها الديمقراطية عندما كانت أصغر سناً. أولاً: يؤكد أن «العنف السياسي ليس كما كان للأجيال السابقة؛ سواء من حيث الحجم أو الطابع. الثاني هو التغيير في خطر الكارثة. ففي الماضي كانت الكارثة تؤدي إلى إحداث تأثير جماهيري أي بمعنى أن على الناس اتخاذ إجراء للإنقاذ، فإن الأثر الآن هو «التقشف»، وهي حالة يبدو فيها كل شيء عديم الجدوى. ثالثًا: جعلتنا ثورة تكنولوجيا المعلومات نعتمد على الاتصالات وتبادل المعلومات التي لا يمكننا السيطرة عليها أو فهمها. بهذه الافتراضات، نظم رونسيمان عمله حول ثلاثة مواضيع تعرض الديمقراطية للخطر: الانقلاب، والكارثة، والاستيلاء التكنولوجي. حيث يصف التحديات التي تواجه الديمقراطيات اليوم بأنها مقنّعة، ويرى أن التهديد الموجه إليها ليس من الخارج، ولكن من التخريب والاستيلاء على السلطة في الداخل وهو أمر مثير للاهتمام. وتتكاثر هذه الشعوبية

في المجتمعات الديمقراطية عندما تكون ظروف الضيق الاقتصادي والتغير التكنولوجي وتزايد عدم المساواة قائمة، وعلى الرغم من أن غياب الحرب من بين هذه الشروط أمر مشكوك فيه. ففي المقابل، فإن الاستنزاف والنزاعات على مستوى منخفض تفعل الديمقراطيات المصابة، وقد أظهرت الديمقراطيات نزعة للذهاب وخوض الحروب في الخارج.

يتكوَّن الكتاب من أربعة محاور رئيسية: الانقلاب؛ والكارثة؛ والاستيلاء التكنولوجي، و«شيء أفضل؟».

في المرحلة الأولى، يستكشف رونسيمان إمكانية الحصول على نوع من الاستحواذ الحكومي الرسمي من قبل مصادر خارجية. حيث يجادل الكاتب بأن ديمقراطياتنا المعاصرة تفتقر إلى المكونات الأساسية للأولوية: فمجتمعاتنا غنية جدا وشبكاتها قديمة في ذلك. وهو يستخدم مثال اليونان، التي عانت انقلابا عسكريا «حقيقيا» في عام ١٩٦٧، ويتناقض مع «الانقلاب الصامت» بعد عدة سنوات حيث «الترويكا» لصندوق النقد الدولي والبنك المركزي الأوروبي والمفوضية الأوروبية أثرت بشكل حاسم في السياسة المالية اليونانية في اتجاه يتعارض تماما مع مشاعر السكان اليونانيين، مما يدل على أن الظروف المتغيرة تجعل أحداث عام ١٩٦٧ غير واردة تقريبا اليوم.

ويناقش القسم التالي «الكارثة!» التأثيرات المحتملة لتغير المناخ والنزاع النووي في تسهيل التغيير السياسي الجذري. بدلاً من ذلك، يجادل رونسيمان بشكل مقنع بأن التأثير هو عكس ذلك، بدلاً من خلقه كما هي الحال في حالة المواجهة النووية الأخيرة بين الرئيسين ترامب وكيم جونغ أون، وهو نوع من التقاعس المتقلب أو المتعالي. يجادل رونسيمان أنه إذا وقعت كارثة حقيقية، فلن يكون إنقاذ الديمقراطية على رأس جدول الأعمال. بعد أن ناقشنا فكرة أن العنف السياسي في شكل انقلاب أو سيطرة من نوع ما من جهة، أو كارثة من ناحية أخرى، سيؤدي إلى نهاية ديمقراطياتنا المتذبذبة، ينتقل رونسيمان إلى قضية التكنولوجيا، وتهديداتها لا تعد ولا تحصى للديمقراطية -حسب وصفه. يقر الكاتب بأنَّ السعي للتنبؤ بالمستقبل أمر سخيف في ضوء مجموعة غير محدودة تقريباً من الاحتمالات، تشمل الروبوتات والتقنية التي تتوقع تفضيلاتنا دون السعي إلى توسيع آفاقنا أو تشجيعنا على تشرب معلومات جديدة. أيضاً في هذا القسم، يظهر وضوح مثير للإعجاب في تنظيم الأقسام الأساسية في هذا التضاريس المعقدة

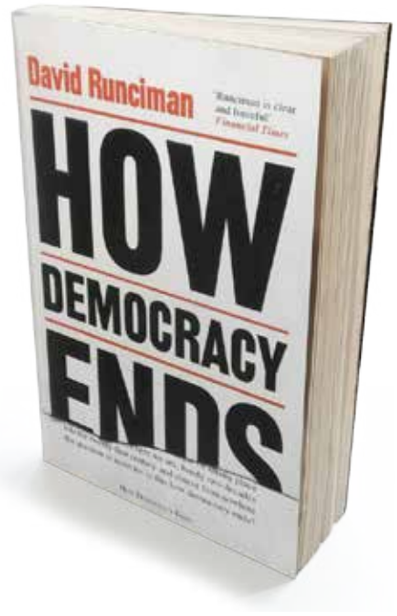

والمستعصية؛ كتب رونسيمان أن «الحضارة الحديثة يمكن أن تدمر نفسها بأسلحة الدمار الشامل، عن طريق تسميم نفسها أو أنها يمكن أن تسمح لنفسها بأن تصاب بالشر». تغير المناخ، والذكاء الاصطناعي أو التقدم التكنولوجي الذي ينتج عنه كارثة واسعة النطاق إذا ما وقعت التكنولوجيا تحت سيطرة الأيدي الخطأ. في نهاية المطاف، يقترح أن الديمقراطية قد تنتهي في شكلها الحالي، وإذا حدث ذلك، ستكون نتيجة المؤسسات مفرغة تعطي الشكل وليس حقيقة الديمقراطية. سوف تنجو الديمقراطية الأمريكية من ترامب، لكنها قد تفعل ذلك في حالة تالفة، ولن يكون ترامب وحده الذي تسبب في ذلك. بدلاً من ذلك، سيكون الأمر بعيداً بسبب عدد من العوامل المتشابكة والطويلة الأمد التي تتجاوز أي فرد، بغض النظر عن تبسيطها غير المحدود واللامبالاة التامة بالمعايير والقيم الديمقراطية.

وفي الجزء الأخير من كتابه، ينادي الكاتب بأن على الديمقراطية الحديثة أن توفر الكرامة للناس، مع توقع أن تؤخذ وجهات نظرهم على محمل الجد من قبل السياسيين. ويقدم فوائد على المدى الطويل. ولكن مع التغيرات السريعة التي تحدث في المجتمعات في مراحل مختلفة من التنمية، ما هي البدائل الموجودة في الأنظمة الديمقراطية في القرن العشرين؟ يقدم المؤلف ثلاثة نماذج؛ أولها: الاستبداد البراجماتي من النوع الصيني الذي يقدم مزايا شخصية تكفلها الدولة، ولكن على حساب فرص التعبير عن الذات. وثانياً: فإن المدافعين عن النظام الارستقراطي، يجادلون بأن الحق في المشاركة في صنع القرار السياسي يعتمد على ما إذا كنت تعرف ما تقوم به. النموذج يعارض مباشرة الديمقراطية التي يتمتع فيها كل المواطنين بحقوق متساوية. ثالثًا: المجتمعات التي تطرح التحرر بالتكنولوجيا. نُشارك الكاتب في الكثير من مخاوفه، لكنه في النهاية لم يقنعنا بالاشتراك في يأسه الأساسي. فرغم كل عيوبها الواضحة والمتعددة، تتمتع الديمقراطية بسجل أفضل من أي شكل من أشكال الحكومة المتنافسة في الحفاظ على مجتمعات حرة ومبتكرة وسلمية ومزدهرة. نعم، الديمقراطية غالباً ما تكون فوضوية وغير أخلاقية وغير فعالة. ونتفق أحيانًا أن الناخبين يعمدون إلى تمكين الحكام المرعبين. نعم، تبدو الديمقراطية متعبة في هذه اللحظة من تاريخها. يبدو أن رونسيمان يقبل بأن هناك شيئًا خاصًا بالديمقراطية. ولكن واحدة من مزاياها الكبيرة هي القدرة على الاستجواب الذاتي والتصحيح الذاتي، الذي تفتقر إليه أنظمة الحكم الأخرى سواء كانوا طغيان الإمبراطوريات، أو العقائد، أو الكهنة. يمكن للديمقراطية أن تسير على نحو خاطئ، لكنها تتمتع بالمرونة لوضع نفسها على حق. وكما يعترف رونسيمان فإنَّ «السياسة الديمقراطية تفترض أنه لا توجد إجابة ثابتة على أي سؤال»، وهذا «يحمينا من التعلق بأفكار سيئة حقا». وكما قال توكوفيل: «إن المزيد من الحرائق تبدأ في الديمقراطية، لكن المزيد من الحرائق يتم إخمادها أيضًا».

هذا الكتاب مكتوبٌ بشكل جيد، ويسير بخطى متساوية، ويمكن الوصول إليه، ولا يستهدف فقط الأكاديميين وإنما أيضا العامة، وقد حاز على استحسان الجماهير. يوصى به بشدة لكل من يسعى لفهم توعكنا الحالي والمهتم بهذه المسألة عن كيفية وصول الديمقراطية إلى ما هي عليه اليوم، وإلى أين قد تذهب!!

- الكتاب: "كيف تنتهي الديمقراطية؟!".
- المؤلف: ديفيد رونسيمان.
- الناشر: (Profile Books)، باللغة الإنجليزية، ٢٠١٨م.
- عدد الصفحات: ٢٥٦ صفحة.

*** كاتب عُماني**

فلسفة نهاية الفن عند هيجل ونيتشه ودانتو لستيفن سنايدر

محمد الشيخ *

يجد الكتاب منطلقه من نبوءة هيجل الشهيرة التي أعلن فيها عن «نهاية الفن» قائلا: «ألَا وإن الفن قد صار في عداد الماضي..» ثمّ يذكر مؤلف الكتاب اكتشافه لكتاب الفيلسوف الأمريكي آرثير دانتو: «الفن في زمن نهاية عهد الفن» الذي طرح فيه تصوره لنهاية الفن. وبعد مضي ثلاثين سنة من التأمل في نبوءة هيجل هذه الغريبة التي تحولت عند دانتو إلى واقع متحقق، ها هو الفيلسوف الإنجليزي ستيفن سنادير أستاذ فلسفة الجمال والفن والفلسفة السياسية والقارية بجامعة الفاتح بإسطنبول يعرض علينا ثمرة تأمله الطويل في هذا الموضوع. ورغم أن حديث نيتشه عن «الفن» يدخل في سياق آخر غير سياق حديث الفيلسوفين - الألماني والأمريكي - فإن المؤلف - وهذا جديد أطروحته - يرى أن أطروحة نيتشه تكمل تلك الأطروحتين.

يبدأ الكتاب بدراسة الصلة بين الفلسفة والفن، فيشير صاحبه إلى أن كثيرا من الفلاسفة، بدءا من أفلاطون، تناولوا بالفحص هذه الصلة. على أنه يذهب إلى بيت القصيد حين يركز على ثلاث نظريات في «الفن» . نظرية هيجل ونظرية نيتشه ونظرية دانتو. ويرى أن هذه النظريات في شأن «الفن» عريضة واسعة. فقد درس هيجل الأشكال الفنية للعمارة والنحت والرسم والموسيقا والشعر دراسة فلسفية. أما نيتشه، فقد ركّز بالأساس على الموسيقا، ولا سيما على الشكل الدرامي للأوبرا التراجيدية، على أن كتاباته امتدت لكي تشمل الأدب، وانتهى إلى فن عناية الإنسان بذاته وتعهدها وتطويرها. وركزت نظريات دانتو على الفنون البصرية، فكان أن أنشأت «فلسفة فن» مدارها على هذا المضمار. وقد ذكر الباحث أنه سوف يركز، في الفصول الختامية من الكتاب، على الفنون البصرية؛ لأنه يعرفها أكثر من سائر الفنون.

هذا وقد بَوَّبَ المؤلف الكتاب إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: النقاش حول نهاية الفن؛

الفصل الثاني: هيجل: نهاية الفن باعتبارها تجلٍّ للحق؛

الفصل الثالث: القوة التحويلية للقدرة الإبداعية البشرية في وهم نيتشه المنقذ؛

الفصل الرابع: دانتو ونهاية الفن؛

الفصل الخامس: أسلوب المستقبل.

النقاش حول «نهاية الفن»

يفتتح المؤلف الفصل الأول من كتابه بالتذكير بموقف أفلاطون من «الفن» (لا سيما منه الشعر)، ودعوته إلى طرد الفنانين خارج مدينته المثالية بتعلّة استبعاد خطرهم عن الناشئة. ويعارض المؤلف هذه الدعوة بدفاع أرسطو عن «الشعر» وعن قيمته للمدينة. ويشير إلى أنّه بعد مضي أزيد من ألفي عام لا زال مقام «الفن» مقاما مُشْكَلا تحت أنظار النقد الفلسفي الفاحصة. وباستثناء دعوة الرومانسيين إلى الرفع من مقام العمل الفني، فإنه خلال المائتي عام الأخيرة ظلت فكرة أنّ الفن قد بلغ منتهاه تتردد التردد. ويعلن صاحب الكتاب أن مهمة كتابه تتجلى في فحص دعوى «نهاية الفن» هذه، التي بدأت منذ القديم، من خلال ثلاثة إسهامات فكرية: هيجل ونيتشه ودانتو، معلنا أنه لا يدافع عن الفن ضد دعوى نهايته؛ فلا حاجة تقوم إلى ذلك. وإنما يريد أن يفسر استدلال أصحاب دعوى نهاية الفن. إذ مهمة الكتاب الأولى توضيح ما الذي يعنيه كل فيلسوف من هؤلاء الفلاسفة الثلاثة. الألمانيين والأمريكي. بدعوى «نهاية الفن».

وهكذا، فإنه عند هيجل من شأن «الروح» . وهو يقصد بهذا المفهوم الأساسي كل ما ينتجه الإنسان من إحساسات جوانية (الروح الذاتي)، ومنجزات موضوعية □مؤسسات اقتصادية واجتماعية وسياسية» (الروح الموضوعي)، وتأملات إدراكية «الفن» ووجدانية «الدين» وتصورية أو مفهومية «الفلسفة» (الروح المطلق) . أن تَعْبُر عالم المادة لكي ترقى إلى أعلى شكل منظم من أشكال وعي الإنسان بذاته وعيا مفهوميا «فلسفيا». وبالنسبة إلى نيتشه، تصير الإرادة . لا الروح . هي موطن الفاعلية، وباستطاعة إرادة الإنسان الاستقواء أن تغيِّر العالم البئيس من الداخل، وأن تحول الإنسان إلى إنسان أعلى. ومن شأن الفن أن يتولى هذه المهمة؛ لأنه قادر على خلق المثال؛ أي على صنع الوهم الذي يمكن الإنسان من تطوير نفسه.

وعند دانتو، فإنه من أمر الفن أن يتغير عبر إدراكه الموضوع باعتباره شيئا جديدا، ومن شأن الموضوع أن يتحول التحول الجذري ما أن يتم تأويله على أنه فن، فيكون من أمره أن يستحيل إلى فلسفة.

وبالنسبة إلى هيجل، فإن نهاية الفن تحدث متى لا يعود العنصر النشيط - الروح - قادرا على أن يُتصور عبر واسطة الفن. وتحدث نهاية الفن، عند دانتو، لما يعمد الفن إلى تأمل ذاته وإلى تحديد ذاته بذاته. آنذاك يدرك الفن ماهيته فينقضي عهد الفن.

هيجل: نهاية الفن بتجسده في الحق

يورد المؤلف نصوص هيجل التي يوحي فيها هذا بأمر «نهاية الفن». لكنه يلاحظ أن هيجل ما استعمل في يوم من الأيام عبارة «موت الفن»، وأن هذه العبارة إنما ارتبطت دلالتها باسم تلميذ تصانيف هيجل . آرثير دانتو. وبعد مضي زمان طويل على وفاة شيخه، وحتى هو لم يستخدم هذا التعبير بحذافيره. وحتى إن هو استعمل التعبير «نهاية الفن»، فإن هيجل نفسه لم يستخدمه، بل تحدث عن «الفن» من جهة أنه لم يعد يلبي حاجات «الروح». وذلك بحيث إن «الروح» بدت وكأنها تجاوزت قدرة التعبير التي توجد في الفن. ويستقصي المؤلف هذه الفكرة استقصاء في مختلف أعمال هيجل. ثم يعرض «فلسفة الفن» بعامة عند هيجل. وبعد ذلك يحدد سياقات حديث هيجل عن «الفن»، ويقارن بين هذه التصورات وتصورات كانط للجميل والجليل والقبيح. وفي ما يخص الفكرة المحورية، يرى المؤلف أن الفارق بين كانط . الذي يَعُدُّ الفن غاية في ذاته . وهيجل . الذي يرى في الفن خدمة لغاية أخرى هي «الروح» . أن عند هذا ما أن تتجاوز «الروح» مهمة الفن حتى ينتهي هذا نهايته بعد أن يكون قد أدى مهمته، بينما بالنسبة إلى كانط لَئِنْ كان ثمة من «نهاية للفن»، فهي ألا يعود يؤدي مهمته في تشذيب الثقافة وتهذيبها؛ ومن هنا يمكن أن يحدث موته. والخلاصة التي ينتهي إليها المؤلف أن للعمل الفني، عند هيجل، مقاما وجوديا فريدا: هو تعبير عن «الروح الكوني» أو «الروح الكلي» وليس إعرابا عن «الروح الفردي». وهو شاهد على تطور «الروح» تطورها الذي تعد فلسفة هيجل برمتها وقوفا عليه بالنظر. وقد أعلن الرجل أن شكل الفن في زمنه قد توقف عن أن يمثل «الروح» (١٨٢٩)، وأن «الروح» قد هجرت الفن وصار يعبر عنها في الدين، بدءا، ثم في الفلسفة، ختما. بما يُظهر سمو الفلسفة على الفن.

قوة الإبداعية البشرية التحويلية في وهم نيتشه المنقذ

يبدأ هذا الفصل من فصول الكتاب بإجراء مقارنة بين «فلسفة الفن» عند هيجل ونظيرتها لدى نيتشه: تجد المثالية القصوى لنظرية الفن عند هيجل ضديدها في ما

سماه المؤلف «فلسفة نيتشه الإستيتيقية». إذ بينما يرى هيجل في «الفن» شاهدا على مرحلة من مراحل تطور الروح، يرى نيتشه في «الفن» أداة لتحويل الواقع وتغييره. وينكب المؤلف على فحص تصور نيتشه للفن من حيث إنه إبداعية إنسانية قمينة بتغيير الواقع. ويستقصي تطور هذا التصور عبر مراحل حياة نيتشه المتعددة. ويخلص إلى أنه لَئِنْ كان هيجل يرى أن «نهاية الفن» تحدث لما لا يعود الفن قادرا على الإحاطة بالفكرة تعبيرا، وبالروح تجسيدا؛ فيصير الفن آنها غير قادر على تلبية حاجات البشرية، ويحدث أن تتجاوز «الروح» الفن؛ فإن نيتشه يرى .في كتاباته الأولى مثيل كتاب ميلاد التراجيديا .أن من شأن الفن أن يموت عندما لا يعود يقدم عزاء قويا للبشرية ضد آلام الحياة، على نحو ما حدث للتراجيديا الإغريقية. لكن البشرية تبقى في حاجة . ولو ميؤوس منها .إلى الفن. إنما الفن «وهم»، لكنه وهم منقذ للبشر.

وينتقل المؤلف إلى بسط القول في طبيعة ودلالات «الفن» عبر أعمال نيتشه الأساسية: من كتاب «ميلاد التراجيديا» إلى كتاب «أفول الأصنام» مرورا بمرحلة نيتشه الرومانسية . كتاب: «إنساني مفرط في إنسانيته» . وقد استحضر المؤلف، على عادته، لكل فيلسوف محاوَرا. ومحاوَر نيتشه هنا كان هو شوبنهاور، كما كان كانط هو محاوَر هيجل. وقد انتهى المؤلف إلى الحديث عن ضرب من «الفن» أبدع فيه نيتشه غاية الإبداع هو «فن الذات»؛ أي فن قيادة الإنسان لنفسه وتعهده لها وعنايته بها. مما حدا بنيتشه إلى أن يجعل من الفلسفة . من حيث هي انهمام بالذات . ظاهرة جمالية، ومما دعاه إلى التنبؤ بظهور «فلاسفة جدد» الشأن فيهم أن يمسوا «فلاسفة فنانين» يبدعون قيما جديدة للبشرية؛ بما يجعل من الفن . الذي يشجع على الإقبال على الحياة . أمرا مضادا للحقيقة، حتى وإن كان «وهما» . التي هي رمز الموت . «الحقيقة ذميمة «ومن ثمة، قاتلة»، والوهم جميل «ومن ثمة، محيي ومنعش»».

ويتمثل التحول الذي حدث لنيتشه في أنه عام ١٨٧٢ اعتقد أن الفن بمكنته أن يُسوِّغ حياة جمالية، لكن في تحليله النهائي انتهى إلى الاعتقاد بأن الفن لا يستطيع ذلك، لكن يمكنه، على الأقل، أن يجعل الحياة قابلة لكي تُحتَمل. فالوجود، بحسبانه ظاهرة جمالية، لا زال يمكن تحمله، أما محاولة تصحيح العالم وهجر الوجود الواقعي إلى مثال متوهَّم، فإنما هو جريمة فكرية في نظر نيتشه. وعلى الجملة، حتى لو كانت الحياة وهما، فلنحياها بملئها.

دانتو ونهاية الفن

خلال القرن الذي مضى على إحساس هيجل بأن على الفن أن يجد نهايته، اعتقد الفيلسوف الأمريكي المعاصر آرثير دانتو أن ذلك حدث ذات معرض للفنان الأمريكي أندي وارول كان قد أقيم في نهاية ربيع عام ١٩٦٤ في «جاليري ستيبل» الذي كان يوجد مقره في رقم ٧٤ من شارع «إيست». لقد عرض وارول في هذا المعرض صناديق كارتونية متنوعة، مثل تلك التي يمكن أن نراها مركونة في مخازن الأسواق الكبرى، وهي مليئة بعلب المواد المحفوظة «المعلبات» من أنصاف عصير الخوخ

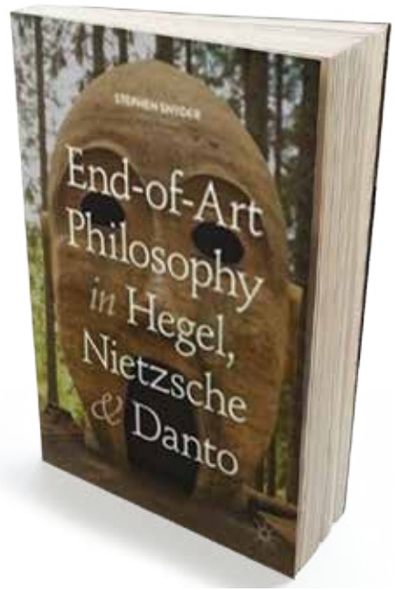

وعصير طماطم وقنينات الكيتشوب وعلب الحبوب والقطن الطبي وغيرها. وقد بدا له أن من دون توفر بعض الشروط، ما كان يمكن اعتبار «علبة بريو» عملا فنيا؛ ومن هناك، لكي يتم ذلك الاعتبار، كان ينبغي العيش في مناخ تصوري معين، والمساهمة في منطق الحجج التي كان يتم تشاطرها مع الفنانين ومع الأشخاص الآخرين الذين كان يتشكل «عالم الفن» منهم. ولقد حدث أن نشر هذه الأفكار في مقال له تحت عنوان «عالم الفن» بجريدة الفلسفة في أكتوبر من عام ١٩٦٤. وقد أبرز في هذه المقالة أن ثمة صلة بين مسألة معرفة «ما هو الفن» وبعض العوامل «المؤسسية» في المجتمع. ومن هذه الجهة من النظر، فإن المقالة عدت أصل ما أمسى يعرف اليوم باسم «النظرية المؤسسية للفن».

لكن، بعد مضي سنين، بدأ يلوح له في الأفق معطى دلالة فلسفية مختلفة شهد عليها هذا المعرض من دون أن ينتبه إليها المؤلف في حينه. بداية، شعر أنه مع عرض «علبة بريو» تم إبراز الطابع الحقيقي للسؤال الفلسفي الدائر على «طبيعة الفن». وفي صلة وثيقة بهذا الأمر، ومع تبنيه لنظرية شهيرة كان قد قال بها هيجل، بدأ يدور في خلده بأنه مع إجلاء طبيعة الفن الفلسفية الحقيقية، يكون الفن قد بلغ نهاية تاريخه؛ بمعنى أن هذا العرض كانت يقدم الشهادة، على نحو ماكر بعض المكر، على ما سماه «نهاية الفن».

وإذن، ينطلق دانتو، في تأسيسه لدعواه «نهاية الفن»، مما يسميه «الحال المحزن لعالم الفن»، وكأن الفن في حداد، ويسعى إلى تفسير ذلك. وتتكون أطروحته من شقين متكاملين: لقد حدث أن مات الفن، وموت الفن هذا وقع بعد أن تحول هو إلى فلسفة. ولا ينكر دانتو أن في الحديث عن «موت الفن» نصيب من المبالغة. لكن أن يكون فننا اليوم «فنا ما بعد تاريخي» بعد أن انتهى «تاريخ الفن» بإعلان موت «صاحبه»، فهذا عنده استنتاج ما يفتأ يتأكد على مر الأيام. وينبهنا دانتو إلى أن ثمة فارقا بين الحديث . وقد مات الفن . عن «مستقبل الفن» . هذا إذا ما كان هو من مستقبل للموتى . وعن «فن المستقبل»: كيف يمكن تصور وتقويم أعمال الفن في المستقبل؟ وعنده أنه يمكن تصور دوام إنتاج أعمال فنية حتى بعد أن يكون الفن قد انتهى، حتى وإن تبين أن لا مستقبل للفن.

أسلوب المستقبل

فقد حق التساؤل الآن: أين يعيش الفن؟ أم هل انتهى حقا؟ والجواب عن السؤال الثاني: أكيد لا. لكن الفن ما مات ميتته، وإنما تحول هو تحوله. فإذن هل أخطأ الفلاسفة بهذه النبوءة؟ والجواب: ليس بالضرورة. فهذا، مثلا، هيجل الذي تنبأ بموت الفن، وجدنا الفن لا يموت ميتة معهودة، وإنّما يتحول إلى فن تصوري. وهذا نيتشه الذي دعا إلى أسطرة الحياة، تحققت نبوءته في أننا كدنا نعيش اليوم في عالم مؤسطر. على أن المؤلف يقصر مناقشته لدعوى الفلاسفة الثلاثة على دانتو بالأساس. والذي عنده أن دانتو إنما قدم مروية واحدة ضمن مرويات أخرى عن تاريخ الفن. يدعي دانتو أن الفن حين يبلغ منتهاه، لا يتبخر وإنما يستحيل إلى فلسفة: يتفلسف الفن. وهو ما لا يوافقه عليه المؤلف. فلا زال الفن في تحول لم ينته: وهذا من شأنه أن يقودنا إلى فهم جديد لمؤسسات الفن ولتغيرات جمهوره. لكن كيف لدانتو أن يتصور أن الفن هو هو في تصور ماهوي، وأن العالم هو الذي تغير من حول الفن؟ والبديل الذي يقترحه المؤلف يوجد في تصورات مؤرخ الفن النمساوي إرنست كومبريتش الذي يبين كيف أن ثمة سيرورة تحدث، وعملية ذات منطق داخلي خاص بها. كما أن المؤلف يجد البديل في نظرية الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس لبناء ما يسميه «مروية بديلة». فكما فعل دانتو، لاحظ هابرماس أن نهاية القرن العشرين شهدت على تحدي الكثير من سمات الحداثة، لكن بينما رأى دانتو في ذلك نهاية النزعة الحداثية في الفن، ومجيء عصر ما بعد التاريخ، فإن هابرماس رأى في «ما بعد الحديث»، الذي يكافئ «ما بعد التاريخي» ثقافيا عند دانتو، بمثابة نقد ذاتي للنزعة الحداثية؛ مؤكدا على أن قوى الحداثة لا زالت فاعلة. يستلهم المؤلف هذه الحجة لكي يوظفها ضد «نظرية نهاية الفن» عند دانتو. والنتيجة: لقد تغير الفن، بكل تأكيد، لكن الفن لا يزال «يَحْدُث» بنفس الطريقة التي كان يحدث بها من قبل. على أنه غَيَّرَ أسلوبه. كلا؛ لم تتحول الفلسفة إلى فن، ولا تحول الفن إلى فلسفة. وإنما الفن تَغَيَّرَ. ومن شأن الفن الذي لا يتغير أن يكون مواتا.

الكتاب: فلسفة نهاية الفن عند هيجل ونيتشه ودانتو.
المؤلف: ستيفن سنايدر.
اللغة: الإنجليزية.
دار النشر: بالغريف ماكميلان، سويسرا
عدد الفصول: خمسة فصول، فضلا عن مقدمة وببليوغرافيا وكشاف بالأعلام.
عدد الصفحات: ٣١٢ صفحة.

*** أكاديمي مغربي**

21 درسا للقرن الحادي والعشرين
ليوفال نوح هراري

علي الرواحي *

مقدمة:

بعد كتابيه الشهيرين عن الإنسان العاقل ٢٠١١م، وعن مستقبل الجنس البشري ٢٠١٥م، يضع لنا نوح هراري ٢١ درسا للقرن الحادي والعشرين، وهي سمات متعددة بطبيعة الحال، ومتداخلة مع بعضها البعض، حيث إنّها ترسم معالم الفترة القادمة من نواحي مختلفة، أصبحت تؤثر على الإنسان، وهو في ذلك ينطلق من أسئلة محددة، مثل: ما الذي يحدث الآن؟ وما هي الخيارات الكبيرة والتحديات التي تواجه الإنسان؟ ولماذا نهتم بذلك؟ وما هي الأشياء التي ينبغي أن نعلمها لأطفالنا؟ وذلك إذا أخذنا في الاعتبار بأنّ التاريخ أو الكثير من الأحداث الماضية قد قُررت بعيدا عن الإنسان المعاصر المنشغل إلى حد كبير بتربية أطفاله، وإطعامهم، وتأمين مستقبلهم، غير أنّ هذا لا يعفي الإنسان المعاصر من المسؤولية الملقاة على عاتقه.

بالإضافة لذلك نجد أنّ أسئلة المستقبل أصبحت تعتبر مسألة ترف ورفاهية، وبشكل خاص إذا أخذنا في الحسبان أنّها بمثابة الصورة الكبيرة غير الواضحة، والتي تختلف من شخص لآخر في هذه الكرة الأرضية والبالغ عددهم ٧ مليارات نسمة وأكثر، في حين نجد أنّ الكثير من الأشخاص والأسر تعيش أوضاعا مزرية كما هو الحال لدى تلك الأسر والأمهات في مومباي واللاتي يعشن في منازل الصفيح ويبحثن عن وجبة طعام للأطفال، أو أولئك الشبان الذين خاطروا بحياتهم في قوارب الموت بحثا عن أرض آمنة، وفرص عمل. لذلك تأتي الكثير من المسائل والقضايا الشائعة والمنتشرة حاليا كقضايا الاحتباس الحراري والأزمة الليبرالية الديمقراطية خارج انشغالات البشر واهتماماتهم اليومية والمعيشية المباشرة.

غير أنّه في المقابل، يقول هراري في المقدمة بأنّ هذا العمل يأتي أو كُتب كأجوبة على أسئلة الكثير من الأشخاص بما فيهم القراء، والباحثين، والصحفيين، والأساتذة من مختلف التخصصات حول مثل هذه المسائل، التي لا يمكن تجاهل أهميتها، وراهنيتها، وشموليتها من حيث ضرورة فهمها من مختلف الجوانب، كما هو الحال في بعض الأسئلة مثل: ما هي دلالة صعود دونالد ترامب؟ وما الذي يمكننا فعله فيما يتعلق بوباء الأخبار الكاذبة؟ ولماذا الليبرالية الديمقراطية في أزمة حرجة؟ وهل هناك حرب عالمية جديدة تلوح في الأفق؟ وما هي الحضارة التي تهيمن مستقبلا على العالم: الغرب، الصين، الإسلام؟ وهل من الضروري أن تُبقي أوروبا أبوابها مفتوحة أمام المهاجرين؟ وغيرها الكثير من الأسئلة التي لا تنتهي في هذا السياق، لذلك نجد أنّ هذا العمل يأخذ بُعدا عالميا، دون إهمال المنظور الشخصي في هذ الجانب، وهو ما يعني أن الجمع بين الجانب الشخصي، والجانب العام لا يمكن إهمال التأثير بينهما، فعلى سبيل المثال في قضية الإرهاب نجد أن هناك تأثيرا للسياسة العالمية في الأفراد، والتأثير النفسي الداخلي عليهم، وهو ما ينعكس بشكل كبير في الأفعال التي تصدر عنهم.

ينقسم هذا العمل لخمسة أقسام، كل قسم يعالج مسألة تبدو مستقلة ومنفصلة عن البقية، في حين أننا أمام خيط ضمني، ورفيع بينها جميعا، فهذه الأقسام الخمسة تؤثر بشكل مباشر وجلي على الإنسان بشكل عام، حيث نجد الفصل الأول يتحدث عن التحديات التكنولوجية وينقسم إلى عدة أقسام منها: خيبة الأمل، والعمل، والحرية، والمساواة. والفصل الثاني يتحدث عن التحديات السياسية، وينقسم إلى أربعة أقسام: المجتمع، والحضارة، والقومية، والدين، والهجرة. كما يتحدث الفصل الثالث عن اليأس والأمل والإرهاب، والحرب، والرضا، والله، والعلمنة. بالإضافة لذلك نجد أن الفصل الرابع يتحدث عن الحقيقة، وينقسم إلى مواضيع كالجهل، والعدالة، وما بعد الحقيقة، والخيال العلمي. أخيرا: يتحدث الفصل الخامس عن المرونة في جوانب كالتعليم، والمعنى، والتأمل.

في فصل التحديات التكنولوجية، نجد أن خيبة الأمل بنهاية التاريخ ما زالت معلقة، أو لم يتم حسمها بعد، فالتفكير البشري مر بقصص وسرديات مختلفة، وهي ليست حقائق أو معادلات أو أرقام، بقدر ما هي سرديات، ذلك أنّ لكل شخص أو لكل مجموعة أو أمة تمتلك قصتها الخاصة، أو أسطورتها التي تمنحها معنى للحياة. غير أنّه في خلال القرن العشرين رسمت أو حددت النخبة العالمية في عواصم العالم الكبيرة ثلاث سرديات كبيرة، سعت من خلاله لشرح الأحداث الماضية من جهة، أو التنبؤ بما يحدث في المستقبل، وذلك من خلال: قصة الفاشية، وقصة الشيوعية، وقصة الليبرالية. ففي سياق القصة أو السردية الأولى نجد أنّ الحرب العالمية الأولى قد طردت أو تخلصت من الفاشية، في حين أنّه من العام ١٩٤٠م وإلى نهاية الثمانينيات نجد أنّ العالم قد دخل في حرب باردة بين سرديتين: الليبرالية والشيوعية، كان على أثرها أنّ تهاوت الشيوعية، وسيطرت في المقابل السردية الليبرالية، وهو ما جعلها تضع تفسيرات للماضي، وتضع بالإضافة لذلك دليلا للمستقبل لا يمكن الاستغناء عنه.

وفيما يتعلق بالسردية الليبرالية فإنّها تذهب إلى أنّه في السنوات الماضية عاشت الشعوب تحت أنظمة سياسية ظالمة، تلك التي سمحت للشعوب بالقليل من الحقوق، والقليل من الفرص الاقتصادية والمعيشية، والحريات الشخصية الضئيلة، الأمر الذي أثر على تنقل وتداول الحركات الاجتماعية والشخصية، وتنقل الأفكار والسلع إلى حد كبير، غير أنّ الشعوب حاربت من أجل الحرية، وشيئا فشيئا وجدت الحرية لها مكانا بين الشعوب.

تقوم قصة جوهر الليبرالية على أطروحة مفادها أنّ الأوضاع التي يعيشها البشر ليست على ما يرام، وأنّ هناك الكثير من الجوانب الصعبة والحياتية التي ينبغي التغلب عليها. فالكثير من أجزاء المعمورة تسيطر عليها أنظمة استبدادية، كما نجد الكثير من الأشخاص في الأنظمة الليبرالية يعيشون في مستويات معيشية فقيرة، وعنيفة، ومحبطة. غير أنّ الوصفة لذلك معروفة من قبل الليبرالية أو كما تطرحها، وهي منح الأشخاص الكثير من الحرية، وحماية حقوق الإنسان من الانتهاكات المختلفة، ومنح الأشخاص حق التصويت والانتخاب، وتأسيس الأسواق الحرة ليتمكّن الأشخاص، والأفكار، والسلع من التنقل والتداول بحرية أكبر من ذي قبل. نجد هذه الأطروحة بشكل جلي لدى جورج بوش، وباراك أوباما، وتبشيرهما بهذا النظام الذي بفضله ستتمكن الدول من العيش بسلام، ورفاهية.

ما حدث في السنوات الماضية بشكل مختصر أنّه في العام ١٩٣٨م، كانت هناك ثلاث سرديات تم تقديمها للنظام العالمي، في حين أنّ في العام ١٩٦٨م، أصبح العالم أمام رؤيتين فقط، وفي المقابل وفي عام ٢٠٠٠م، نجد أنّ هناك وجهة نظر واحدة تسيطر على العالم، أمّا حاليا فنحن أمام فشل ذريع لكل وجهات النظر المختلفة التي تقدم نفسها كخلاص لهذا العالم، مما يعني أننا أمام عالم بدون وجهة أو رؤية للمستقبل والحياة، إننا أمام خيبة أمل عميقة.

تزايدت خيبات الأمل مع الليبرالية وتحديدًا مع الثورتين: التقنية والحيوية، وهو ما تجسد في جهل الناخبين والسياسيين على حد سواء بتفاصيلهما وآثارهما وتبعاتهما. ذلك أنّ المهندسين، والتقنيين، والفنيين، ومن خلفهم أصحاب رؤوس الأموال هم الذين يجيدون استخدام هاتين التقنيتين

بشكل فعال، وهو ما انطبق إلى حد كبير على الجوانب المالية والاقتصادية في هذا الجانب.

تطرح هذه التطورات التقنية الكثير من الأسئلة المحورية حول الحرية (ص٤٤)، تحديدًا في عصر البيانات الضخمة التي تراقب وتقوم بإعداد التقارير عن كل شيء تقريبا عن طريق الكثير من الوسائل، فإذا كان السردية الليبرالية في السابق والتي تعتز بها المجتمعات الديمقراطية هي حرية الاختيار الشخصي في أغلب الأشياء إن لم يكن كلها، بدءا من المجال الشخصي وصولا إلى الانتخابات العامة التي تقرر المصائر الفردية والجماعية بشكل مباشر. نجد في بعض التجارب التاريخية الأوروبية الهامة، في تلك المقابلة الشهير مع مارجريت تاتشر في عام ١٩٨٧م، والتي راهنت من خلالها على أهمية الخيارات الشخصيّة في الحفاظ على المجتمعات والشعور بالمسؤولية تجاه الكثير من الأحداث، وهذا يقودنا إلى حدث مهم قام به لاحقا ديفيد كاميرون عندما قرر إجراء استفتاء شعبي حول خروج المملكة المتحدة من الاتحاد الأوروبي، فهو لم يسأل الملكة اليزابيث، ولم يستعن بأسقف كانتربيري، أو الأساتذة في كامبريدج أو أكسفورد، بل ذهب للشعب، وطرح عليهم السؤال المهم والمصيري: ماذا تشعرون حيال ذلك؟ والسؤال الآخر هنا يدور حول الفرق بين: ما رأيك أو ما هي وجهة نظرك؟ وماذا تشعر حيال هذا الموضوع أو ذاك؟، حيث إنّ الأولى تفترض عقلنة الموضوع، وتعليله، والبحث عن الأسباب المختلفة، في حين أنّ الثاني يشير مباشرة إلى الانطباع، والمشاعر التي من الممكن التلاعب بها مؤخرا - وفي الواقع منذ قديم الزمان- عن طريق الكثير من الوسائل التقنية، والرقمية، وغيرها. في لحظات الاستفتاء ذهب عالم الأحياء البريطاني الشهير ريتشارد داوكنز محتجًا حول وجاهته، منطلقا من أنّه - بما فيهم هو شخصيا - يفتقدون للكثير من المعلومات والبيانات الاقتصادية والسياسية. في هذا السياق، تعتمد الديمقراطية بشكل كبير على المشاعر البشرية التي تنعكس في الإرادة الحرة للأفراد، والتي تعتبر «مصدرًا غير نهائي» للسيطرة، حيث إنّ بعض الأشخاص أكثر ذكاء من الآخر، في حين أنّ الجميع متساوون فيما بينهم. فالمشاعر لا تقود الناخبين فقط، بل تشمل أيضًا القادة السياسيين، وهذا اتضح بشكل كبير في استفتاء البريكست.

في الفصل الثاني المعنون بالتحديات السياسية (ص٨٥)، يتحدث هراري عن طبيعة مجتمعات المستقبل في ظل هيمنة الشركات الكبرى التي تقبع في وادي السليكون الأمريكي، وعن الحضارات أو الحضارة الوحيدة المهيمنة على الإنتاج البشري عن طريق هذه الشركات والتطبيقات الإلكترونية، وليس فقط عن طريق الاستعمار العسكري القديم، كما يتحدث عن القوميات المختلفة الصاعدة في الكثير من بقاع العالم، حيث إنّ هذه الإشكاليات الملحة تحتاج لحلول جديدة بشكل عاجل. يشير هراري - إلى خطاب مارك زوكربيرغ مؤسس وصاحب فيس بوك، في فبراير ٢٠١٦م، وذلك إبّان دعوته لتأسيس مجتمع عالمي؛ لأنّ هذه القوانين متوفرة في موقع فيس بوك. في شهر يونيو ٢٠١٧م، أعاد زوكربيرغ شرح سمات وملامح تلك الفكرة؛ فبعد الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي تعم

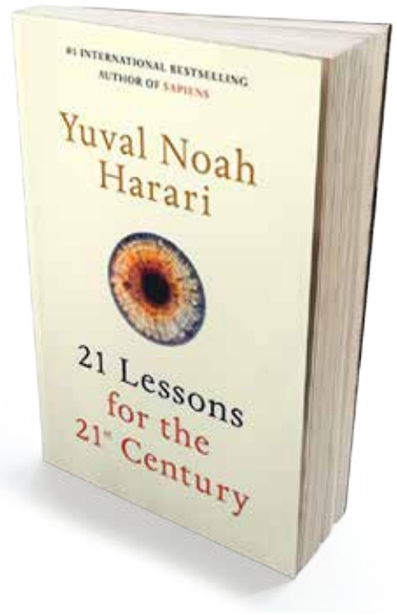

العالم، وإدمان المخدرات المتفشي، والأنظمة السياسية الفاشية، وغيرها من الأعراض، أصبح من الضروري إعادة بناء مجتمع مختلف، يتم فيه اختيار المجموعات بناء على العمليات الحسابية، والتفضيلات، والشروط المختلفة: كالهوايات، والرغبات، والاهتمامات، والذوق، وغيرها. غير أنّ هذه الخطب الرنانة والحماسية ما لبثت أن اصطدمت بفضيحة شركة كامبريدج انالتيكا التي قامت ببيع بيانات ومعلومات المشتركين.

ولكن السؤال هنا، هل توجد حضارة واحدة هي المسيطرة على العالم أم توجد حضارات أخرى منافسة لها؟

يطرح هراري هذا السؤال إلحاقا للتحديات التي تواجه المجتمعات من جهة، ولتلك الدعوات التي أطلقها أفراد مؤثرون مثل زوكربيرغ وغيرهم، معلنين عن رغبتهم في خلق مجتمعات جديدة، مختلفة عن المجتمعات السابقة، أو خالية من الكثير من المشاكل والاختلافات والخصوصيات الثقافية، غير أنّه في ظل ذلك نجد أن «صراع الحضارات» حاضر بقوة، وبشكل كبير، حيث يذهب في هذا السياق الكثير من الخبراء، والنقاد، والسياسيين، وحتى بعض المواطنين العاديين، إلى أن الأزمة السورية، وصعود الدولة الإسلامية، وآثار البريكست على استقرار الاتحاد الأوروبي، إنما هي تعبير عن الصراع بين الحضارات، أو بين «الحضارة الغربية» ، «والحضارة الإسلامية»، ذلك أنّ الغرب يسعى منذ فترة طويلة إلى فرض نمطه الحضاري والقيمي بما فيها الديمقراطية، وحقوق الإنسان، على الدول الإسلامية الأمر الذي أدى إلى ردود أفعال عنيفة، بالإضافة إلى سلوكيات الكثير من المهاجرين المسلمين في الغرب التي أدت بدورها إلى تغذية هذه الأفكار والتصورات فيما يتعلق بالصراع بين الحضارات.

من النقاط والتساؤلات المهمة التي يطرحها العمل - وما أكثرها- هي تلك المتعلقة بالأمل واليأس من المستقبل، والخوف من الهجمات الإرهابية التي تقضي على الكثير من الأشخاص في جميع أنحاء العالم، بما فيها أوروبا، والصين، وأمريكا، والعراق، وأفغانستان، ونيجيريا وغيرها. في حين أن داء السكري يقتل الكثير من الأشخاص وربما بأضعاف مضاعفة للأعداد التي تموت من الهجمات الإرهابية. بالإضافة لذلك فإن تلوث الهواء قتل ما يقارب سبعة ملايين نسمة. والسؤال هنا: لماذا نخاف من الإرهاب أكثر من داء السكري، ولماذا تسقط الكثير من الحكومات في الانتخابات بسبب الهجمات الإرهابية المتقطعة؟

يشير المعنى الحرفي لكلمة إرهاب إلى تلك الاستراتيجية التي تهدف لتغيير الوضعية السياسية عن طريق نشر الخوف، عوضا عن الأضرار المادية لهذه التفجيرات. غير أن هذه الوضعية لا تتغير بشكل مستمر بسبب العنف، وهذا ما نتعلمه بشكل جيد من المعارك والحروب في الماضي، فهي بالرغم من مآسيها الكثيرة، إلا أنها من الممكن أن تؤثر علينا بشكل أكثر من الهجمات الإرهابية.

بالرغم من هذه الهجمات الإرهابية والحروب التي تدور بين البشر، فإن القليل من التواضع يصبح ضروريا في هذا الجانب، فالإنسان لم يعد مركز الكون، فالكثير من الأشخاص وفي الكثير من الحضارات يعتقدون بأن ثقافتهم هي «مسمار العجلة» في التاريخ البشري، وهذا ما حدث سابقا في الحضارة الإغريقية، حيث نجد لديهم اعتقادا بأن التاريخ قد بدأ مع هومر، وسوفوكليس، وأفلاطون، وبأن كل الاختراعات البشرية المهمة، والحيوية، قد ولدت في أثينا، أو اسبرطه، وغيرها من المدن الإغريقية. وهذا ما نجده أيضا لدى الصينيين، الذين يعتقدون بأن الحضارات الأخرى قد استنسخت الكثير من اختراعاتهم وإنجازاتهم، كما ينطبق ذلك أيضا على الحضارة الهندية التي ترى بأنها اخترعت أيضا الطائرة قبل الحضارتين الصينية والإغريقية. تنطبق هذه الفكرة على الكثير من الأمم والحضارات اللاحقة أو السابقة، بدرجة أو بأخرى.

من الجانب الآخر، فإن هذه الدعوات تشير ولو بشكل غير صريح إلى بذور عنصرية، فكل الأديان والقوميات الفاعلة حاليا في مسرح التاريخ البشري، لم تكن موجودة في السابق، ذلك لأن الفضائل، والأدب، والفن، والروحانية، والإبداع، وغيرها، تعتبر إمكانيات إنسانية موفرة في جينات الجميع بدون تمييز، أو اصطفاء رباني.

ختاما، يتحدث هذا العمل عن الكثير من النقاط والمسائل الملحة، والتي تثير تساؤلات متجددة في عالمنا المعاصر، منها ذلك المتعلق أيضا وإلى حد كبير بالإعلام وصناعة الحقيقة، والأخبار الكاذبة التي تنتشر في الآفاق بسرعة البرق، مؤثرة بذلك في الاختيارات البشرية المصيرية، بما فيها مستقبل الشعوب والدول.

الكتاب: ٢١ درسا للقرن الحادي والعشرون
المؤلف: يوفال نوح هراري
الناشر: Jonathan Cape, ٢٠١٨
عدد الصفحات: ٣٥٢
لغة الكتاب: الإنجليزية

*** كاتب عُماني**

«الناس في الكهف».. لرينيه تن بوس

سعيد الجريري *

أيُّ ناس، وأيُّ كهف، اللذان يُعنَى بهما المفكِّر الهولندي رينيه تن بوس أستاذ الفلسفة في جامعة رادبود، في نايميخن، في كتابه الجديد «الناس في الكهف؟».

إنَّه يميل -عادةً- لاستخدام الاستعارة في التعبير عن أفكاره وعرض رؤاه الفلسفية، في سياق ما يقترحه من آلية اشتغال تضع الأفكار الأكاديمية في متناول جمهور واسع. ولعل المدخل إلى كتابه يقتضي إضاءة كهوف اللغة والتاريخ والفلسفة، وهنا تشخص أسطورة كهف أفلاطون، في الباب السابع من كتاب "الجمهورية"، التي يُوظف الكاتب رمزيتها في تصوره الدائر محتواه حول تعاملنا مع الحقائق، وهو جزء من مشروعه الفكري الذي أنجز منه حتى الآن ثلاثة عشر كتاباً، منها ما هو حول العلاقة بين البشر والحيوانات، والكارثة البيئية التي تسمى الإنسانية، والبيروقراطية. ولعل من أبرز تلك الكتب: التفكير الاستراتيجي (١٩٩٧)، الموضة واليوتوبيا في التفكير الإداري (٢٠٠٠)، الحيوان العبقري (٢٠٠٧)، تجوّل في الإنثروبوسين (٢٠١٧). وقد أُسبغَ عليه لقب "مفكر الوطن"، لمدة عامين؛ اعتباراً من أبريل ٢٠١٧، وهو لقب فخري له رمزيته في سياق الاحتفاء الوطني الهولندي بمنجزه العلمي.

يتألف الكتاب من مُقدمة ضافية وثلاثة فصول، يعرض في أولها لمرجعية النظر إلى الناس ومعرفتهم العالمَ من البدايات الأولى إلى الطرائق المنهجية، ويتم فيه التفكير بعناية في إعادة بناء الكهف بدلالته الأشمل. ويدير الثاني حول العلماء والصحفيين أو نخبة المجتمع. فيما يخصص الثالث لتأمل الناس وبلورة خصائصهم المائزة وفق تصوره؛ باعتبارها علامات دالة في متن الفلكلور الفلسفي الذي يقترحه. ويبدو أنَّ تأملات الكتاب وتحليلاته تؤدي إلى تفسير الفجوة بين العلم والمجتمع، وتجسير المسافة بين الفلسفة والناس. ولنا على خلفية التعبير الاستعاري من أفلاطون أن نستحضر هنا نظرية الكهف التي هي من أشهر نظرياته الفلسفية على مر التاريخ؛ إذ أسس نظرته الجوهرية على أن ما يراه الناس أو ما اعتادوا أن يروه، قد لا يكون هو الواقع أو الحقيقة عينها، بل لا يعدو كونه مجرد ظلال للحقيقة، فالحواس خادعة، ولا سبيل إلى الركون إليها، بأي حال من الأحوال.

الناس -ناس هذا الكهف الأفلاطوني- ليسوا متجانسين، وفق رينيه تن بوس، فهم نماذج عديدة مختلفة؛ فمنهم: الكهفي البدائي، والمنسي، والحسي، والمطمئن، والمخدوع، والأعمى، واليقظ، والراضي، والمستأنس، والتائه، والماضوي، والمتخلف...إلخ. على أن هناك، أيضاً، الباحث عن المعنى، والفاشل، والحكيم، والنزق، والنائي، وشارد الذهن، والكذاب، والمميز، والمبتسم والسعيد...إلخ. أي أن الناس معنى متعدد التجليات، فلا مجال، والحال هذه، للزعم بأنهم عينة واحدة، وهو ما يشيع في خطاب الساسة ورؤساء الحكومات مثلاً في المواقف الرسمية؛ إذ يشيرون إلى الناس أو الشعب، بينما الواقع لا يحيل إلى الناس أو الشعب في منطوق خطاب ذلك السياسي أو رئيس الحكومة الذي ينوب عن السكان أو الجميع، في بلده!

ومِمَّا يثيره رينيه تن بوس في كتابه سؤال قديم جديد ما زال مُعلقاً: لماذا يجب علينا الخروج من الكهف، ما دام في الكهف شعور بالراحة، حتى بالأخبار المزيفة التي يميل الكهفيون إلى تصديقها، بدلاً من قلق البحث عن الحقيقة أو رعبها؟ وهل يكون من الطبيعي اختيار أو تفضيل الكهف المشبوه على ضوء الواقع البارد وفقاً للفيلسوف الألماني بيتر سلوتريديك: نريد جميعاً العودة إلى طمأنينة الرحم؟

الجهل أصل الشر في نظر الفلاسفة وغيرهم؛ لذلك كان على الناس أن يعالجوا هذا الإشكال، ولأنهم لا يعرفون معرفةً فُضلَى، فإنهم يحتفظون بظلال الحقيقة أو الواقع. غير أن الحقيقة ربما هي أن الناس قد لا يريدون أي حقيقة على الإطلاق -يقول رينيه تن بوس- وليست هناك حقائق أيضاً، وأنْ ليس المراد هو المعرفة التي يجب تعلمها؛ فالمعرفة التي تُراد إنما هي المعرفة الفطرية، بحيث لا يكون للفلاسفة على الناس درجات، فهو يريد أن يكون فيلسوف الحد الأدنى الذي يفعل أقل قدر ممكن من ذكائه. فليس على المرء أن يعرف ماهية الشمس للاستمتاع بدفئها. فوفقاً لهذه الفلسفة قد يكون لدى الناس أسباب وجيهة لعدم الإصغاء للعلماء مثلاً والصحفيين أو صنّاع الرأي؛ وبالتالي عدم الخضوع لمقولاتهم ووجهات نظرهم، وما يُصدرون عنه من منظور فكري أو ثقافي.. إنهم يؤدون وظيفة قديمة مموهة بالجدة.

لكن: هل يغدو التنوير ممكناً في عالم لا يريد أن يرى؟ سؤال تعمق فيه رينيه تن بوس، مستقصياً كيفيات العالم الذي لا يريد الحقائق كما هي لا كما تبدو له؛ فالحقيقة المرة تبقى خارج الباب، والكهف ملجأ يهرب إليه الخائفون الذين كثيراً ما يضعون رؤوسهم في الرمال عندما يتعلق الأمر بالحقائق، فهُم يفضّلون البقاء في كهوفهم، ويخلقون أشكالاً جديدة للطمأنينة تمكنهم -على الأقل- من الحفاظ على الواقع، أياً كانت صورته.

وفي سياق ضرورة الوهم الذي يحتاجه الإنسان ويبحث عنه، لا يمكن لأحد أن يستغني عن الأوهام، لكن إذا كان الوهم هو القاعدة فذاك مؤشر حينئذ على أن هناك خطأ ما. فالسياسيون، مثلاً، هم بشر من لحم ودم مثلهم كمثل غيرهم من الناس، لكن عندما يتم ترويجهم بالصور على الدعائم الإعلانية، أو في الحملات الانتخابية، يصبحون أكبر من حجم ذواتهم الحقيقية.

ليست هناك حقائق بحسب نيتشه، وإنما هناك تفسيرات، وقراءة العالم لا تعني أنه كتاب، لكن من المفيد رؤيته كذلك -باعتباره كتاباً- فهذا قد يجعل العالم مألوفاً. وإذ لا يوجد حل فهو الحل الوحيد: ليس الدين وليس السياسة وليس العلم، فالأمل الوحيد الذي يبقى -بحسب الفيلسوف الفرنسي

ميشيل سيريس- هو أن االعلم يتمثل حكمة تسامحية لم يعرفها الدين والسياسة في سياقيهما العامين واشتغالاتهما الجوهرية.

لقد أصبحتْ الحياة مُعقَّدة إلى درجة أن أيًّا منا لن يكون خبيراً في جميع الحقول والمجالات. فالحقيقة لا تعني شيئاً على الإطلاق في الحركة الاجتماعية مثلاً، لكن يمكن تلخيص رسائل التنوير المظلم في ثلاثية متصلة:

- أن أي ادعاء للحقيقة سخيف ومتعجرف وخادع.
- إذا كان هناك أي معرفة بالحقيقة فهي -عادةً- ليست جيدة للناس؛ لأنها تنفّرهم من الواقع.
- الولاء للناس أكثر أهمية من الولاء للحقيقة.

ولعل من المفارقات أن المدينة نفسها هي كهف -مهما تكن ذات توصيف موازٍ أو على النقيض منه- فسكان المدينة، أي مدينة، لا يعرفون ما يحدث خارج المدينة في العالم. ومنذ أفلاطون كان هناك ازدراء خفي للناس، فهم كهفيون لا يمثلون شيئاً على الإطلاق فكريًّا؛ لأنهم غير قادرين على تفسير الحقيقة، وقد كان للكهف تأثير هائل، على ثقافتنا الإنسانية عامة، ذو فاعلية عميقة.

إنَّ كتاب «الناس في الكهف» خطاب للناس، أولئك الذين هم بقدر شمولهم باللفظ يختلفون ويتعددون في الدلالة والكيفية والماهية أيضاً، ولعله لذلك حاول رينيه تن بوس أن يبلور الفلكلور الفلسفي، في منجزه الجديد، بجملة من الخصائص المائزة للناس، وفق تصوره؛ من أبرزها أن:

- الناس يحبون كهفهم.
- الناس يهتفون أو يصرخون عندما تجري الأمور بخير أو بسوء.
- الناس يشعرون بالنسيان.
- الناس يعيشون في الكهف، لكنهم لا يحبون ذلك.
- الناس لا يريدون رؤية الأشياء.
- الناس لا يرون دروس النخبة مثيرة للاهتمام.
- الناس يحبون التقليد.
- الناس يحتاجون إلى تعلُّم المعرفة.
- الناس يرون الحياة في الكهف ممتازة.
- الناس لا يجوز لهم العيش في كهف، ولكن في أنواع من المنازل.
- الناس عالقون في الكهف.
- الناس في كهف أفلاطون لا يتذكرون أي شيء.
- الناس يَخدعون ويُخدعون.
- الناس لا يتسامحون مع الأفكار المعارضة.

- الناس يتعرضون للاختبار.
- الناس يقرؤون كل شيء.
- الناس ليسوا مجانين ولا يريدون الفشل.
- الناس يحافظون على الذات ويعتمدون على الحس السليم.
- الناس الذين يكونون مستقلين في العالم لا يُسهم استقلالهم في الحفاظ على الذات.
- الناس لا يعرفون ما إذا كان باب الغرفة يُفتح داخليًّا أو خارجيًّا.
- الناس جميعهم يكذبون.
- الناس يكونون في بعض الأحيان محبين للحقيقة.
- الناس يختارون مصالحهم الخاصة.
- الناس يحبون ترامب.
- الناس لا يستطيعون إخفاء ضحكهم.
- الناس في الكهف راضون وسعداء.

غير أنَّ الناس لا يحتاجون إلى الحقيقة ليعيشوا برضا. فالحقيقة هي نوع من السهول التي تقع في مكان ما في مكان مرتفع، ولكن لا يمكن الوصول إليها بسهولة.

وفي سياق رؤيته التي يصدر عنها في مجمل مشروعه الفكري المُنجَز، يوجه رينيه تن بوس قراءته النقدية إلى تصورات النخبة من علماء وصحفيين يستهدفون تشكيل وتوجيه وعي العامة، بالمعنى الواسع، أو معرفتهم وفق مشارب منهجية وأيديولوجية معينة، فيرى أنه آن الأوان لكي تغادر الفلسفة نخبويتها وتقترب من تكوينها الشعبي، ربما كمحاولة لمغادرة كهف أفلاطون بعد ألفي عام من الفلسفة التي أقامت كما يرى جدراناً سميكة في الكهف نفسه، أدت دور العزل والإغواء بالظلال عن رؤية الحقيقة كما هي وأصواتها لا أصداءها التي تبدو بديلاً عنها.

ولعلَّ أهمية هذا الكتاب تأتي من كون مؤلفه مفكراً من داخل المؤسسة الأكاديمية، لكنه يقفز على جدارها العالي، ليقترب من الناس بما هم خارج النخبة التقليدية، وهذه مزيةٌ له ولمشروعه الفلسفي الذي يشتغل عليه في التفكير والممارسة، باحثاً ومحللاً وناقداً لقضايا تاريخية وآنية على تماس مباشر من منجزات اللحظة وتحولاتها، كمختص في فلسفة الإدارة التي رفدها بأبحاث وأفكار إستراتيجية، رغم اشتغالها على الآني والمتغير، ليقدم بذلك نموذجاً مثيراً للجدل عن المشتغل بالحقل الفلسفي في عالمنا المعاصر، الذي يستطيع مد جسور بين الفلسفة من حيث هي، والقضايا الاجتماعية، ولكن دون تبسيط المسألة بلا داع. ولعل كتابه هذا يمثل مساءلة فلسفية للمنجز الفلسفي عبر التاريخ منذ أفلاطون إلى اللحظة الراهنة وتحدياتها، لا سيما السياسية التي أنعشت النزعات الشعبوية في أوروبا وأمريكا، ولم يعد من المنطقي بقاء الفلاسفة على مقاعد معلقة في فضاء تاريخي، فيما يمُور العالم من حولهم بتساؤلات جوهرية تجاوزت كهفيات الإجابات النخبوية التي تبدو له تسويغية أكثر من كونها تنويرية، كما هي وظيفة الفلسفة الحقيقية.

ثمة عبارة مُكثَّفة يختم بها رينيه تن بوس كتابه، كخُلاصة موجزة لكل ما أمعن النظر فيه والتأمل: «... بعد كل شيء، ليس على الناس أن يأكلوا ما تُعده النخبة وتقدمه لهم». وتلك هي رؤيته التي ينطلق منها لإشاعة الأفكار الأكاديمية، وجعلها مبذولةً في متناول الجمهور (الناس)؛ حيث لا سلطة للنخبة على الشعب بمزاعم كهفية جديدة، تنفي عن نفسها كهفية مضمرة، يقف تن بوس على مسافة منها ناقداً جارحاً، وربما مستفزاً أحياناً. فهل يبقى الناس كما هم في متصور الفلكلور الفلسفي؟ أم هل يغادر الكهف بأفلاطونيته العتيدة؟ سؤالان ما زالا معلقين في فضاء التأمل، ريثما ينتج المسار الفلسفي إجابات تعزز منطوقهما أو تقوضه، أو تجري عليه اقتراحاتها المعمَّقة.

- الكتاب: «الناس في الكهف».
- المؤلف: رينيه تن بوس.
- الناشر: بَوم. أمستردام، باللغة الهولندية، ٢٠١٨م.
- عدد الصفحات: ١٩٢ صفحة.

*** كاتب عربي مقيم في هولندا**

غرامشي في العالم العربي
باتريسيا ماندوكي - أليساندرا ماركي - جوسيبي فاكا

عزالدين عناية *

ثمة تقاربٌ حدودي بين العالم العربي في جناحه المغاربي وإيطاليا، وبالمُقابل ثمة تباعد بين الثقافتين العربية والإيطالية. ليس المراد بتباعد الثقافتين اختلاف الرؤى وتباين المفاهيم، بل ندرة التواصل وقلّة التثاقف سواء عبر الترجمة أو عبر الإلمام بالثقافة الأخرى من كلا الجانبين. فلا تتجاوز حصيلة الترجمات من الجانبين، العربي والإيطالي، الألف عمل في كافة المجالات، على مدى تاريخ اللغتين العربية والإيطالية، بناءً على دراسة إحصائية أُعدّت في جامعة روما. فالاستشراق الإيطالي المعاصر المعني بالعالم العربي يشكو وهنًا، حتى أنه بالكاد يقدر على عرض الثقافة العربية ضمن رؤى واقعية وموضوعية، داخل وسط غربي مشحون؛ وبالمثل لا يُبالي العرب كثيرا بما تنتجه إيطاليا ثقافيا رغم الثراء والتنوع في ذلك الوسط، مع أن أقسام تدريس اللغة الإيطالية أضحت موجودة في جملة من الجامعات العربية، بَيْد أن كثيرا من مناهجها عقيم من حيث الإلمام بالزخم الثقافي في إيطاليا. لتنتشر على الضفّتين أحكام جاهزة وقوالب مغرضة باتت تعمّق الهوة بين العالمين.

الكتاب الحالي الذي نعرضه «غرامشي في العالم العربي» هو محاولة متواضعة للقطع مع ذلك الصمت الثقافي الحائل دون التواصل العربي الإيطالي، سيما على مستوى الأفكار والمفاهيم والرؤى. وهو يتمحور بالأساس حول مدى حضور طروحات المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي (١٨٩١-١٩٣٧) ورؤاه بين المثقّفين العرب. سواء من خلال تتبّع استيعاب مقولاته في الدراسات والأبحاث التي تناولت المفكر الإيطالي من قبل الكتّاب العرب، أو كذلك برصد ترجمات أعماله وما خلّفته من أثر. فلا شكّ أن غرامشي من بين قلّة من الكتّاب الإيطاليين ممّن نالهم حظ كبير، دراسةً ومتابعةً، في الداخل والخارج. وفي نطاق رصد الاهتمام بهذا المُفكر، يورد أنجيلو دورسي في كتاب حديث الصدور بعنوان: «غرامشيات. دراسات حول أنطونيو غرامشي» (٢٠١٦)، أن غرامشي هو واحد من بين ٢٥٠ كاتباً الأوفر حظا في العالم قراءةً وترجمةً ودراسةً. حيث كُتب عنه أكثر من ٢٠,٠٠٠ نصّ، في أربعين لغة، مما بوّأه الصدارة في قائمة الكتّاب الإيطاليين الأكثر رواجًا في الخارج منذ منتصف القرن الفائت، قبل دانتي أليغييري، وأومبرتو إيكو، وألبرتو مورافيا، وبيار باولو بازوليني وآخرين.

توزّع الكتاب إلى قسمين رئيسيين، انشغل القسم الأول بتتبّع حضور غرامشي في الثقافة العربية، وقد أعدّ هذا القسم ثلاثة من الباحثين الجامعيين الإيطاليين يتعاون جميعهم مع «مؤسسة غرامشي» الإيطالية المعنية بتراث هذا المُفكر، وهم جوسيبي فاكا وباتريسيا ماندوكي وأليساندرا ماركي؛ واهتمّ القسم الثاني بترجمة مقتطفات من الدراسات والأبحاث العربية الصادرة حول غرامشي، نذكر منها أبحاثا للطاهر لبيب وعلي الكنز وعبد القادر الزغل وفيصل دراج وحسن ناظم ونادية رمسيس فرح وفريال غزول وياسر منيف وآخرين، تولى مراجعتها الأستاذ الفلسطيني المُقيم بروما وسيم دهمش.

منذ مطلع كتاب «غرامشي في العالم العربي» طُرح سؤالٌ محوري تمثّلَ في لماذا الحديث عن غرامشي؟ أو تحديدا لماذا جرى رصد حضور غرامشي دون غيره من المثقّفين الإيطاليين؟ ويبرّر معدّو الكتاب انجذاب الكتّاب العرب إلى مقولات غرامشي بعاملين أساسيين:

ترافقُ ظهور فكر غرامشي في الساحة الثقافية العربية في مطلع السبعينيات، مع فترة شهدت فيها البلاد العربية حروبا مع إسرائيل وتململات مجتمعية عميقة، مما خلق تذبذبا في الأوساط الثقافية العربية وأفرز بحثًا عن بدائل من خارج القومية بوجهيها الناصري والبعثي وأطروحاتهما الاشتراكية العقدية (ص: ٣٧).

ثراء أدوات غرامشي المعرفية بشأن مواضيع مثل الهيمنة، والخضوع، والمجتمع المدني، والكتلة التاريخية، والمثقف العضوي، والمثقف التقليدي، والمثقف النيوأكاديمي، والمثقف الجمعي، وحرب المواقع، والثورة المنقوصة، والثورة السلبية وما شابهها، وهي مفاهيم غرامشية قريبة من قضايا العالم العربي. ومن هذا الباب نجد شبهًا للمسائل الاجتماعية الثقافية المطروحة مع غرامشي بشأن الواقع الإيطالي في مطلع القرن الفائت، مع ما يعيشه العالم العربي في الراهن المعاصر. فقد كان مزْجُ غرامشي بين الفعل الملتزم والتحليل الثقافي عاملاً قوياً في إعطاء أطروحاته جاذبية ورواجًا. إذ لدى هذا المفكر قدرة، كما يرسم إدوارد سعيد ملامحَه، على استخلاص نظرة شاملة بشأن مرحلة تاريخية محددة، تشبه بوجه ما «جغرافي» السياسة والثقافة.

اعتمد المؤلّف الإيطالي على أعمال ملتَقيين أُقيما في البلاد العربية، انعقد الأول في تونس بين الرابع والعشرين والسادس والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٨٩. وقد تابعت «مؤسسة غرامشي» المعنية بإرث غرامشي السياسي والثقافي الأنشطةَ حينها وشاركت فيها. تلاه مؤتمر ثانٍ حول غرامشي انعقد في القاهرة بين الرابع والعشرين والسادس والعشرين من شهر نوفمبر من العام نفسه بإشراف أستاذة الأدب الفرنسي أمينة رشيد. كانت أغلب مداخلات الأطراف المشاركة في الملتقيين المذكورين من مصر وتونس، ودارت فيهما أسئلة حامت حول راهنية غرامشي؟ تميّز عرض الكاتب فيصل دراج في اللقاء الثاني حينها بالإثارة والجرأة، من خلال اعتباره أن مفهوم المثقّف العضوي بالمفهوم الغرامشي ينطبق على «المثقف الديني» بوصفه الأقرب والأقدر على ولوج نسيج الثقافة الشعبية المهيمنة في البلدان العربية، بما يفوق كثيرا ما يمكن أن يأتيه المثقف العربي اللائكي أو المتغرّب (ص: ١١٩).

ترصد باتريسيا ماندوكي بدايات التعرّف على غرامشي قائلةً: كان لترجمة كتاب «فكر غرامشي السياسي» لجان مارك بيوتي من الفرنسية سنة ١٩٧٥، وكذلك كتاب «مختارات من دفاتر السجن» من الإنجليزية إلى العربية سنة ١٩٩٤، وهو مؤلّفٌ من إعداد كوينتن هوائيري وجوفري نويل سميث الذي سبق أن صدر سنة ١٩٧١، دورٌ كبير في التعريف بغرامشي وبمقولاته، بما وفّراه من إلماحة عامة عن هذا المفكّر الإيطالي نظرا لقلّة الملمّين العرب باللغة الإيطالية. نشير أن عفيف الرزاز كان أوّل من ترجم نصّا لغرامشي من الإيطالية وهو مؤلف «المجالس العمّالية» صدر عن دار الطليعة سنة ١٩٧٥. في الواقع يعود البرنامج الأوّل لترجمة أعمال غرامشي إلى العربية إلى مطلع العام ١٩٧٣ لما تولى فرانكو فيري

مهمّة تسيير «مؤسسة غرامشي». حينها أوكلت المؤسسة الإيطالية للكاتب المصري اليساري أنور عبدالملك تولّي مهمة ترجمة «أعمال مختارة لأنطونيو غرامشي» من الفرنسية، تعتَمد على ترجمة «دار غاليمار» الباريسية وبقصد أن تُنشر في «دار الطليعة» اللبنانية. تمّ الاتفاق حينها على نشر ثلاثة أجزاء: يضمُّ الأول منها أعمال غرامشي قبل اعتقاله من طرف السلطات الفاشية، مع تجنّب الكتابات المغرَقة في الشأن المحلّي الإيطالي، ويضمّ الثّاني مختارات من «الكراسات»، والثالث يُخصَّص لـ «دفاتر السجن». وبوجه عام شهدت تلك الفترة تطوّرا للتوجهات الاشتراكية في إيطاليا وتحمسا للقضية الفلسطينية، وهو ما جعل الحماس فياضا لترويج مقولات غرامشي.

تقول أليساندرا ماركي إحدى المساهمات في المؤلَّف الجماعي «غرامشي في العالم العربي»، إن إنجاز عمل يتعلّق بأثر غرامشي في المفكرين العرب ما كان عملا يسيرا، لما تطلّبه من مسح وترجمة في الآن نفسه، لكنّه كان عملا لازما وعاجلا. كما تشير ماركي إلى أن الأعمال المترجَمة عن غرامشي لا تتجاوز عدد أصابع اليد مع ذلك ثمة انبهار بمقولات الرجل. فمثلا ليس هناك ترجمة كاملة لحدّ اليوم لرسائل غرامشي. كما تبرز الباحثة أن الاتصال المبكر بنصّ غرامشي قد أتى غالبا مع كتّاب عرب يعيشون في المهجر أو يقرأون بلغة أجنبية (دائما عبر نصوص مترجمة إلى الإنجليزية) كما الشأن مع المصري أنور عبدالملك (توفي في باريس ٢٠١٢)؛ والفلسطيني هشام شرابي (توفي في بيروت ٢٠٠٥)؛ أو كذلك مع المغربي عبدالله العروي (من مواليد أزمور/المغرب ١٩٣٣). وهم كتّاب متشابهو الملامح من حيث الكلف بغرامشي وأطروحاته (ص: ١٣٧).

لكن تبقى ملاحظة عن العمل متمثّلة في أن الكتاب يحتفي بمساهمة كتّاب عرب يروّجون لمقولات غرامشي في غياب التعريج على الاستيعاب النقدي لفكر غرامشي. بما يطرح سؤال لماذا ينجذب كثير من الكتّاب العرب إلى الكتابات الإيديولوجية ويفوتون في الكتابات العلمية التي صنعت التحولات الثقافية الكبرى في الغرب؟ لقد أثبتت السنين أن استفادة الثقافة العربية من الفكر الغربي بوجهيه العلمي والمعرفي ضئيلة. وعلى سبيل الذكر لو تتبّعنا الكتابات العربية التي هامت بغرامشي لن نعثر فيها على نضج ورويّة، بل هناك ترويجٌ مجانيّ لمقولات الرجل مع غياب التقييم الحقيقي لأفكاره ورؤاه، وإلا ما معنى أن تروج الغرامشية قبل استيعاب مقولات غرامشي أو الإلمام بها، فليس هناك ترجمات بما يكفي، وليس هناك دراسات عنه وافرة. لقد روّج الأوائل بانبهار ولحق بهم الأتباع بانقياد. وهو في الواقع سلوك

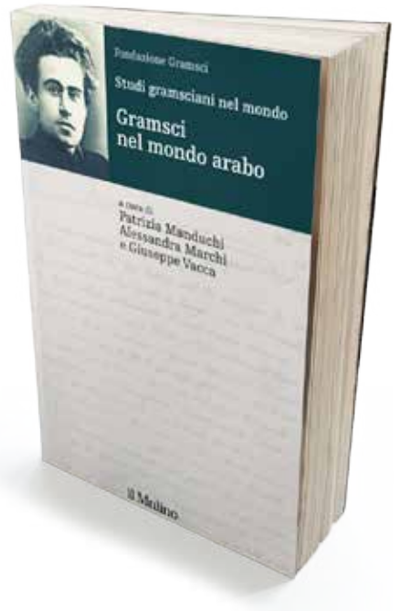

شائع غالبا ما يتعامل به الكاتب العربي مع المفكرين الغربيين. والصواب هو الخروج من هذا التقديس ووزن الأمور بميزان العقل حتى نتفادى التهافت المعرفي.

فعلى ما يعرضه كتاب «غرامشي في العالم العربي» يتميز الكتّاب العرب المختارون كنماذج في هذا الكتاب بالاتباع والولاء لمقولات غرامشي، وتغيب عنهم الرؤية النقدية، سيما أن أغلبهم من المثقفين اليساريين العَقَديين من أتباع اليسار العربي (انظر جوسيبي فاكا، ص: ٢١٠). وتقريبا كلّهم لا يقرأون بالإيطالية، وجاء اطلاعهم على غرامشي من خلال كتابات فرنسية أو إنجليزية وغابت عنهم مراجعات مقولات غرامشي المتوفرة في اللغة الإيطالية. لعلّ ذلك ما حدا بالمفكر الإيطالي نوربارتو بوبيو (١٩٠٩-٢٠٠٤)، للدعوة إلى إخراج غرامشي من حضن اليسار وتحريره من سطوة التعامل القداسي للحفاظ على ما تبقّى من غرامشي، حيث لم تظهر مراجعات جادة لفكره سوى من خارج دائرة الأتباع، على غرار ما قام به الإيطاليان جوسيبي تامبورّانو وفرانكو لوبيبارو.

من جانب آخر، نلاحظ في الكتابات العربية غياب التطرق لنظرة غرامشي للدين، أو حشرها ضمن منظور يساري غائم. لعلّ ما حال دون ذلك أن نظرة غرامشي قد وردت متناثرة في آثاره، وقد عُنيت أساسا بالكاثوليكية كإيديولوجيًا وبالكنيسة كجهاز إيديولوجي. فقد مثّلت المسيحية البدئية في منظور غرامشي حركةً ثورية ونمطًا لتعقّل العالم، ثم تحوّلت مع كاثوليكية «الإصلاح المضاد» إلى حاجز أمام التطلّعات التقدّمية. فليست رؤية غرامشي للمسيحية واردة ضمن نسق مجرد لا تاريخي، على غرار رؤية قرينه ماركس، ولكن مختبَرة ضمن سياق تَطوّرِها الخاص وبحسب النسق التاريخي السوسيولوجي. صحيح أن غرامشي ينطلق من نقطة تضاد مع الميتافيزيقيا، مع ذلك لم يجحد ما للدين من دور في التاريخ البشري. كما أن غرامشي يبدي انتقادات للكنيسة، ولكنّه يتوجّه إلى نمط تاريخي محدّد من الكاثوليكية، ويميّز بين التديّن الفائض من المشاعر والمؤسسة الدينية التي تسعى إلى استغلال تلك المشاعر. على العموم ثمة مثْلَنة لغرامشي حولته إلى وثن، الأمر الذي حجب عن كثيرين مواقفه الخطيرة تجاه الديمقراطية مثلا. فقد كتب غرامشي في صحيفة «أفانتي» لشهر فبراير ١٩١٦ «الديمقراطية هي عدونا اللدود، الذي نستعدّ معه للمنازلة الدائمة... لأنَّ الديمقراطية هي الأداة الرخوة في العربة التي تخفف من ثقل الحمولة على العجلات وتمنع الصدمات التي تسبب الانقلاب»، لذلك الديمقراطية هي زيفٌ ومصدر وَهْم، مفضلا الليبرالية لأنها برجوازية. وفي مؤلف لأورسيني بعنوان: «غرامشي وتُوراتي»، يخلص الكاتب إلى أن غرامشي كان «معلّما بارزا لبيداغوجيا اللاتسامح في القرن الماضي» حيث ذهب إلى أنه الأب الروحي لتنظيم «الألوية الحمراء»، التنظيم المحظور إلى اليوم في إيطاليا.

خلال السنة المنقضية انعقدت بالتعاون بين «جامعة جندوبة» التونسية و«مؤسسة روزا لوكسمبورغ» ندوة بتونس العاصمة تحت عنوان «العودة إلى غرامشي». منذ إطلالة حضور غرامشي في الأدبيات العربية مرّ زهاء الأربعة عقود على اكتشاف الرجل والخطاب لم يتعقّل ولم ينضج، فلا زال الكلفُ بغرامشي يفتقر إلى استيعاب نقدي لمقولاته، ذلك ما يرون على الساحة.

في منتهى هذا العرض نشير إلى نقيصة بارزة في الكتاب. ففي مؤلَّف يطمح ليكون مصدرا ومرجعا في إيطاليا عن حضور غرامشي في الثقافة العربية، هناك غياب لجرد بالأعمال والدراسات والمقالات والترجمات العربية المعنية بغرامشي، سيما وقد تجنّد للعمل فريق من الباحثين والمترجمين.

الكتاب: غرامشي في العالم العربي.
مؤلف جماعي من إعداد: باتريسيا ماندوكي - أليساندرا ماركي - جوسيبي فاكا.
الناشر: إيل مولينو (بولونيا-إيطاليا) «باللغة الإيطالية».
سنة النشر: ٢٠١٨.
عدد الصفحات: ٣٣٧ ص.

* أستاذ تونسي بجامعة روما

«بلاد خارج الحداثة: روسيا في القرن الحادي والعشرين».. لفلاديسلاف إنوزيمتسيف

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

تنبني الدراسة التي يطرحها العالم السياسي الروسي المعارض فلاديسلاف إنوزيمتسيف، وتَتناول مكانة روسيا في عالم القرن الحادي والعشرين، على مفاهيم فلسفية مثل: القاعدة والانحراف، والحداثة والتقاليد، والانحدار والركود والتنمية. ويفسر المؤلف هذا المفهوم الأخير (التنمية) لا على أساس المستوى العالي من تطوُّر المكونات الفردية لأفراد المجتمع، وإنما كمنهجية فعَّالة وتجاوبية بين الفرد والدولة، ووفقا للمؤلف فإنَّ هذا العامل الجوهري للتنمية غير واضح المعالم في روسيا حتى الآن.

لقد تميَّزت العقود الأخيرة في تاريخ البشرية -وفقا لرأي المؤلف- بإقرار فكرة خاطئة مفادها أنه لا وجود لنُظم اجتماعية مختلفة في هذا العالم، كما يفترضه المنطق والعقل، وإنما هناك معايير عامة تنطبق على الجميع وتتخللها حالات انحراف تزيد في خطورتها أو تقل. إن هذا النهج التنظيمي المزعوم أدى -بطبيعة الحال- إلى تبني نوع من الاستيهام، مفاده أن معظم الانحرافات يمكن احتواؤها وتصحيحها، ونتيجة لهذا الوهم العام برزت ظاهرة فريدة اتسم بها القرن الحادي والعشرون دون سواه ألا وهي الحروب باسم الديمقراطية.

وفي واقع الأمر، وإنْ نحن تركنا هذا النهج من التفكير جانبا، وعدنا إلى التاريخ القريب، سنجد أن قيام حروب كهذه لم تكن محتملة الوقوع. فلنأخذ مثالا تشكل النظام الفاشستي في ألمانيا الهتلرية في الثلث الأول من القرن العشرين، فقبل أن تشرع ألمانيا في مواجهة العالم وغزو البلدان، لم يكن لأحد أن يتخيل أن يقوم الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة بمهاجمة ألمانيا، لمجرد أن نظامها لا يوافق الدكتاتورية البروليتارية السوفيتية أو البرجوازية الديمقراطية الأمريكية، وأن النازية نظام يحيد عن نهج البلدين الكبيرين ويجب إزالته!

يُعرب المؤلف عن قلقه من أنَّ البلدان التي يتم إقصاؤها عن العالم المتقدم ودفعها إلى التخوم البعيدة (ما زالت تمثل حتى الآن بضعة بلدان قليلة؛ منها: روسيا وفنزويلا، وربما الصين من بعد)، وبمجرد أن تدرك عزلتها وانطواءها، لن يكون أمامها حينئذ سوى الإيمان بقدرها والتكيف معه، بل والاقتناع بنجاعة وضعها الجديد. يشير المؤلف إلى أن العالم غير النامي (نتيجة لعزلته عن العالم النامي والمتطور) سيبدأ تدريجيا في إقناع نفسه بفوائد عدم التنمية. ويرى المؤلف أن البشرية تشهد حقبة زمنية تحكمها القطبية الثنائية التي يقف على كِفة منها الثراء والنجاح، وعلى الكفة الأخرى الفقر والإخفاق، وأن سيرورة هذه القطبية تجري بسرعة قياسية. وعن طبيعة الصراع العالمي في راهنيته الحضارية وما قد ينتج عنه مستقبلا، يقول المؤلف: إننا نعيش أسوأ أنواع الثنائية القطبية. الكل يسعى لإملاء قواعده على غيره، وبموجب هذه الروح، أصبح العالم ساحة صراع على امتلاك السلطة وانتزاع مكانة الحَكم والقاضي. أما السياسات الداخلية للبلدان، فأنيط أمرها إلى الشعوبيين» (ص:١٢).

والحال كذلك، فإنَّ بلدا مثل روسيا، شقت طريقها الخاص طلية مئات السنين، واحتلت شأنا عالميا كبيرا في الجزء الأكبر من القرن العشرين، بلد مثله يعد مثالا بارزا للبلدان التي تواجه تحديا شاقا على صعيد الهوية الوجودية والحضارية.

لا يوجد شك أنَّ الروس يعتبرون بلدهم مميزا عن غيره من البلدان، كما لا يكل أيديولوجيو الكرملين التأكيد على خصوصية روسيا التي لا مثيل لها؛ فما هي إذن الميزات التي تحوزها روسيا دون غيرها من البلدان؟ يؤكد فلاديسلاف إينوزيمتسيف على أن بنية الدولة الروسية بنية طبيعية، إلا أن علاقتها مع الحداثة هو الشيء المميز والخاص فيها، فهي، أي الدولة الروسية، وعلى مدى القرون المتعاقبة، إما أن تواجه مصاعب خارجية تحول بينها وبين التحديث في بنيتها، أو أنها تتعمد تعطيل هذا التحديث من الداخل. يقول الكاتب في هذا الصدد: «من الصعوبة بمكان إيجاد ولو مجال واحد في روسيا يمتلك خصوصية تقدمية طبيعية ويتميز إيجابيا عما هو موجود في الدول الأخرى. إن التاريخ المُسجل في الخمس عشرة سنة الماضية التي تم فيها القضاء على المقدرات الصناعية في البلد بوتيرة مخيفة، إلى جانب محاولات إعادة صياغة الأيديولوجيا والنظرة الدينية، كل ذلك يشير بجلاء إلى التقهقر الجبري عن الحداثة ووقوع روسيا في حالة اللا تحديث» (ص:٤).

ويكشف الباحث عن مُفارقة الدولة الروسية القديمة/المستدامة والقوية في ظاهرها. ومن خلال وصفه لتفاصيل حياة المجتمع والاقتصاد والعلاقات الدولية، فإنه يرسم أمامنا لوحة بانورامية لروسيا، حقيقية وإن كانت بألوان كئيبة. يقول إنوزيمتسيف: «لقد ولى الزمن الذي كانت فيه روسيا المتأخرة تعمل بصدق على اللحاق بأوروبا. اليوم لا تتخلف روسيا عن الركب وحسب، بل ترفض كل فرصة للتنمية. فموسكو تتلاعب بموارد المجتمع وممتلكات المواطنين، بينما الأهم لديها هو أن تبقى مصالح الحاشية بعيدة عن الضرر. هذا الإجراء غير الأخلاقي يجرد البلاد من مستقبلها، وإن كانت لا تموت بسببه» (ص:١١).

لا يعد التباين بين مستوى الدولة الاقتصادي ومقدراتها المالية الكبيرة وبين مستواها الاجتماعي المنخفض استثناءً في التاريخ البشري، بل يمكن القول إنه هو القاعدة. كما أن الدول لا يقيض لها دائما اللحاق بالركب الحضاري في زمنها وتعجز عن مجاراة غيرها من الدول المتقدمة، وثمة شواهد كثيرة في التاريخ على الجمود الذي يضرب الدول ويصيبها بشلل يمتد لعشرات ومئات السنين، وقد شهد التاريخ الروسي مثل هذا الموات مرة أو مرتين. ومع ذلك، فالحالات الأقل شيوعًا، وهذه هي حال روسيا الراهنة حرفيا، عندما يختار المجتمع بوعي (أو أنه لا

يمنع سلطاته من القيام بذلك) طريق العودة إلى الماضي بحجة الحفاظ على قيمه، ويجاهر صراحة برفضه لقيم الحداثة، وهي القيم ذاتها التي اكتسبها في فترات زمنية سابقة. يقول الباحث: «في الاقتصاد، قمنا بالتخلي عن نظام مفتوح نسبيا مع العالم الخارجي، ولجأنا إلى الاكتفاء الذاتي، تركنا ما أنجزناه في اقتصاد السوق الخاصة لنأخذ بنظام شركات الدولة والبنوك، تحولنا من بيئة تنافسية إلى أخرى احتكارية. وفي المجتمع، ثمة انتعاش للروح القديمة، فنكاد نلجأ معها إلى بناء البيوت بموجب التقاليد القديمة، الكنيسة تلتحم بالدولة، والرقابة تعود ثانية، وإجراءات تقييد حرية تبادل المعلومات في تزايد مستمر. وفي السياسة، تم تدمير المؤسسات الديمقراطية بشكل كلي تقريبا، فبعد أن كان اختيار رؤساء البلديات يتم بالانتخاب الشعبي، ثم أوكل الأمر إلى البرلمانات المحلية، أصبح الآن عن طريق الترشيح المباشر والتعيين. أما انتخابات المحافظين، فقد ألغيت في معظم المدن الكبرى. النظام القَضائي لا يمتلك الحد الأدنى من الاستقلالية. أمَّا السلطات التنفيذية، فقد استعادت قوتها التي كانت تتمتع بها قبل خمسين عاما وأكثر.. وبرغم هذا التردي الاقتصادي والسياسي والفكري، تجد أن المجتمع لا يساوره الخوف، تماما كما لو أنه فقد الإحساس بتاريخية الزمن وأضاع غريزة الحفاظ على الذات» (ص:٢٣-٢٤).

يتتبَّع المؤلف السمات التي تتميز بها روسيا الراهنة عن معظم الدول الحديثة؛ وذلك على أسس سيكولوجية وثقافية. يأتي في مقدمة هذه السمات الشعور بالعظمة والتفوق، هذا الشعور الذي يستمد مسوغاته كلية من سعة الأرض ومساحتها الشاسعة، وذلك في الوقت الذي لا يقترن فيه النجاح في الزمن المعاصر بحجم الأراضي التابعة للبلد، كما يندر رصد أي نزوع لدى الدول إلى التوسع الجغرافي، ناهيك -بعدئذ- عن أن الدولة الروسية ليس بمقدورها تصريف أكثر من نصف الأراضي التابعة لها. يقول فلاديسلاف إنوزيمتسيف: «إن أكثر ما يرعب الساسة (في روسيا) ليس فقدانهم الزعامة الاقتصادية في العالم، ولا الموارد البشرية (في البلاد)، وإنما فقدان الممتلكات السابقة التي كانت ذات يوم ومازالت جزءا من الامبراطورية» (ص ٥٤).

السمة الثانية التي يرصدها المؤلف لتحديد ملامح سيكيلوجية السياسة الروسية، ولا تقل أهمية عن السمة الأولى هي تشوه فكرة الدولة نفسها، وقد خصص الكاتب فصلا في كتابه لمناقشة هذه المسألة. يقول في ذلك: «الحكومة في روسيا

هي نفسها البلاد. لذلك لم يحدث هنا، ولأمد طويل، أي حوار حقيقي بين السلطة والمجتمع؛ هذا المجتمع الذي لم يقيض له حتى الآن صياغة عريضة مطالبه للحكومة من أجل العيش معها بقدر المساواة» (ص:٥٧).

وانطلاقا من هذا، ووفقا لرأي الباحث، فإن فكرة الحكومة بنموذجها الروسي ظلت قائمة، ومنذ الأزل، على تكريس كل مقدرات البلاد البشرية والمادية من أجل خدمة الدولة وليس لصالح المجتمع الذي عليه أن يضحي بحياته ومستقبله صيانة لهذه الفكرة/الظاهرة، التي هي في حقيقتها ظاهرة هلامية وغير قابلة للتجسيد الحي. لقد نجحت الدولة في إقصاء المجتمع عنها، كما لا تجد للدولة أثرا في الحياة الاجتماعية للفرد. لذلك؛ فروسيا من البلدان القليلة التي لا ترتقي فيها قيمة البشر بمرور الوقت، فنجد أن الحكومة كانت وراء فقدان المواطنين لحياتهن أكثر مما حصدته الحروب والكوارث (يمكن الاستدلال على ذلك بالقمع الجماعي إبان حكم القيصر إيفان الرهيب وستالين وبطرس الأكبر والحروب الداخلية للأمراء الروس والحروب الأهلية وبطبيعة الحال المجاعة). كما تزداد أعداد الأفراد الذين تتم إدانتهم ومعاقبتهم عن جرائمهم ضد الدولة من قرن إلى آخر، وهذا على النقيض تماما من الدول الأوروبية. كل هذا أدى إلى ظهور عدد من الظواهر الأخرى التي من أهمها ظاهرة غياب العصرنة في العلاقة مع الاقتصاد، فأصبح العمل أقل قيمة من الموارد، وأحيانا لا تكون له قيمة البتة. إن نتيجة هذا التوجه الذي يرتفع فيه شأن الدولة على حساب الفرد وفوق أكتافه تؤكد على الفرضية الروسية القائلة «الغاية تبرر الوسيلة»، وهذه الفرضية هي نفسها القاعدة التي يتم بموجبها تجاهل الكفاءآت في المجتمع. وهكذا، وعلى مر العصور، تم استبدال الفاعلية بالكفاءة في روسيا. وعلى إثره أصبح معنى النجاح وجوهره هو الوصول للهدف وليس حل المعضلات الكامنة والمحيطة بمسألة ما. وفي التاريخ الروسي شواهد كثيرة على ذلك، ومنها بناء المدن الجديدة وشق الطرق وإقامة المنشآت الصناعية، ولكن من غير أن تكون الحاجة إليها واضحة للعيان.

وفيما يتعلق بمشاعر الجماهير حيال الأوضاع في البلاد، يشير الباحث إلى سمة أخرى من سمات المجتمع الروسي ألا وهي الشعور باستحالة تحقيق الذات مع هيمنة البيرقراطية، وهو شعور يستحوذ على جزء لا يستهان به من المجتمع الروسي. وباستشعارهم للقوة التي تمتلكها السلطات، يقوم الناس بإفراز حاجتهم للاحتجاج من خلال التواصل (بما فيه التواصل الافتراضي) من أجل رفع مستواهم المعيشي وتحقيق ذواتهم في الأعمال التجارية والمؤسسات العامة غير المسيسة والأنشطة الترفيهية المتنوعة. من جهة أخرى، وعن فردية المواطن الروسي بالمقارنة مع جاره الأوروبي يقول المؤلف: «من الصعب لنا عند معاينة الحقائق تجاهل فكرة أن الروسي يمتلك فردانية تفوق ما يمتلكه الأوروبي، فهم أكثر استعدادا للاعتماد على قواهم الذاتية وأكثر جرأة وحيلة» (ص:٨٦). في الوقت نفسه لا تهيمن الاحتياجات لممارسة الأنشطة الاجتماعية، التي يتم إدراجها بشكل طبيعي في قائمة الأولويات الأساسية لمواطني البلدان المتقدمة، لا تهيمن على نظام القيم الإنسانية للروس، وبالمقابل لا يلتزم الناس في روسيا بالبحث عن الأسباب الرئيسية لعدم الرضا الشديد من حياتهم ولا يتقيدون بصرامة للقضاء عليها. يقول المؤلف عن ذلك: «إنه مظهر من مظاهر الفهم الثابت تاريخيا من أن الدولة في روسيا ليست خادما للمواطن، وبالتالي فإن أفضل ما يمكن توقعه منها هو عدم تدخلها في الفضاء الخاص للأفراد» (ص:٨٨).

- الكتاب: «بلاد خارج الحداثة.. روسيا في القرن الحادي والعشرين".
- المؤلف: فلاديسلاف إنوزيمتسيف.
- الناشر: ألبينا بادليشير، موسكو، ٢٠١٨م، باللغة الروسية.
- عدد الصفحات: ٤٠٦ صفحات.

*** أكاديمية ومستعربة روسية**

أوروبا والجغرافيون العرب في العصور الوسطى
جان شارل دوسين

سعيد بوكرامي *

كان الجغرافيون العرب في العصور الوسطى يلقبون أوروبا الشاسعة بـ«الأرض الكبيرة»: ويقصدون بها الجغرافية الشاسعة التي تتشكل من فسيفساء الشعوب المتحرّكة داخل مجال جغرافي يتشكل من «الجزء الغربي الممتد من أوراسيا بين جبال الأورال وجبال القوقاز وبحر قزوين من الشرق والمحيط الأطلسي من الغرب والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود ومنطقة القوقاز من الجنوب والمحيط المتجمد الشمالي من الشمال». هذه الأراضي الشاسعة والمبهمة، لم يتوقف الجغرافيون العرب أبداً عن دراستها ووضع خرائطها. كيف نفهم إذن سر هذا الاهتمام المتمثل في تصور جغرافي مميز، لقارة غير معروفة ومألوفة؟ سنجد الجواب الشافي وأجوبة أخرى في كتاب جان-شارل دوسين، الذي يدعونا إلى سبر أغوار حقبة زمنية ضاربة جذورها في المخطوطات والخرائط المنتمية إلى العصر الوسيط بحقبته الضبابية معتمدا على مجموعة من المصادر العزيزة المنال. يتجسد إذن هذا الجهد الأكاديمي المحمود في دراسته الهامة الصادرة مؤخرا تحت عنوان « أوروبا والجغرافيون العرب في العصور الوسطى: (من القرن التاسع إلى الخامس عشر). «الأرض الكبيرة» شعبها، وتصور الفضاء العرقي والسياسي.»

يبدأ جان شارل دوسين أستاذ الفلسفة والتاريخ الشرقي ببداية القرن التاسع، حينما كان الجغرافيون العرب ينظرون إلى أوروبا على أنها مجموعة ضبابية من الشعوب ذات الانتماء المسيحي عموما، لكنهم ما زالوا وثنيين وبعيدين عن البحر الأبيض المتوسط، ومركز الحضارات، في حين تبرز مدينتان من بين الأسطورة والواقع ، وهما روما وبيزنطة. هذه المجموعة البشرية تنتظم مع مرور الوقت في سلطة الدولة وتنتشر في المدن، التي وصفها الجغرافيون كأماكن حضرية ومراكز اقتصادية تندرج ضمن شبكة مترابطة من الطرق، والتي تمتد إلى الدول الإسكندنافية والفولجا. ولكن عندما تعرض هذه القوى في منطقة البحر الأبيض المتوسط وتتعدى إلى الأراضي الإسلامية، فإنها تمثل تصورا جيو سـ ي اسيا. على هذا النحو ، يغطي الكتاب ستة قرون من الأرشيف الجغرافي الذي يظهر أن «أوروبا» لم يتصورها الجغرافيون العرب كتلة واحدة لا يمكن تجزيؤها ، بل على العكس من ذلك كانوا ينظرون إليها على أنها أرخبيل ديموغرافي متنوع ومتحرك بلا حدود.

رغم أن العصور الوسطى في أوروبا عرفت عند كثير من المؤرخين بأنها عصور مظلمة إلا أنها كانت تموج بالدينامية الجيوسياسية، التي تفتقت عنها علاقات متنافرة تارة ومنسجمة تارة أخرى ومثيرة في أوقات أخرى. تمظهرت على مدى قرون على شكل حروب وفتوحات واستردادات ودبلوماسية وتحالفات وتجارة ومصاهرات وعمليات نقل للعلوم والحرف والصناعات. ولولا المدونات الجغرافية للرحالة العرب لما عرفنا تجليات هذه العلاقات بين البلدان الاسلامية و أوروبا ومقدار ثرائها وأهميتها.

يذكر الكاتب أن الرحالة العرب أطلقوا على أوروبا (أورفا) نسبة إلى المصطلح الموروث عن التراث الإغريقي. ومن بين التصورات التي آمن بها الجغرافيون العرب أن العالم ينقسم الى أقاليم سبعة ولهذا السبب فهم لا يعتبرون أوروبا وحدة متجانسة بل بلدانا متباينة: بلاد الروم (البيزنطيون)، بلاد الفرنج (الفرانك)، بلاد الصقالبة (السلاف)، ولهذا كان الجغرافيون العرب ينظرون إلى أوروبا في تعددها وتنوعها. يذكر الكاتب أن عمل أندريه ميكل الضخم الذي أنجزه في أواخر السبعينيات، شكل محطة حاسمة في استجلاء تاريخ التأريخ في الجغرافيا العربية والإسلامية في العصور الوسطى وبروزها كحقل متجدد ومتواصل. وهنا يعترف جان-شارل دوسين بأن كتابه مجرد لبنة أخرى تنضاف إلى الحقل التاريخي وفي هذا المجال من البحث يقترح دراسة تحليلية للبناء التدريجي لصورة أوروبا في المصادر الجغرافية العربية، بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر. ويظهر أنّ الدراسة هي استكشاف جديد، ومفتون بتاريخ التفاعلات بين الكيانات السياسية والدينية في العالم العربي والإسلامي والعالم المسيحي خلال العصور الوسطى.

حقق الكاتب جان شارل دوسين منجزه المتميّز عبر عشرة فصول، تقتفي التطورات الزمنية في المدونات الجغرافية العربية. لهذا يدعونا الكاتب في سياقها إلى إعادة النظر في النتائج التي توصل إليها المستشرقون في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين حول تصورات أوروبا في هذه المصادر. وقد كانت الدراسات التي أنجزت حتى الآن حول هذا الموضوع تتعارض حول مكانة هذه «الأرض الكبيرة»، بحكم التصور الراسخ في ذهن الجغرافيين العرب بأنها مناطق متخلفة في معظمها، ويعتقد البعض أنّ الجغرافيون المسلمين لم يكونوا مهتمين بدراستها، بقدر اهتمامهم بالقارة الآسيوية، والبعض الآخر يدّعي أنّ أوروبا كانت لها مكانة انتقائية في هذه المدونات. ومن هنا يقترح المؤلف تدقيقا كاملاً لهذه المصادر لإظهار التعقيدات جميعها التي تخفيها هذه النصوص ، وطبيعة تباينها وكذلك تطور محتواها وفقا للعوامل الداخلية والخارجية التي يجب ضبطها حتى لا نضيع فرصة فهم هذه الهيكلة التدريجية لأوروبا على ضوء كتابة الجغرافيين العرب.

في المقدمة، يقترح جان-تشارل دوسين تعريفًا للفضاءات التي يختار معالجتها، مهتما بالسياق الجغرافي الواسع لأوروبا بحيث يدمج الأراضي التي تبدأ من شبه الجزيرة الايبيرية إلى شواطئ البونتيك، عبر الجزر البريطانية والدول الاسكندنافية. كما يتضمّن الفضاء المدروس عددًا لا يحصى من السكان لتقديم تاريخ وظيفي، وهذا يمثل تحديا مرجعيا ومنهجيا أمام المؤلف، لكنه يتصدى له بنجاح إذ يقترح جردا ببليوغرافيا يحتوي على أعمال من اثنتي عشرة لغة. وهذا يفسر شساعة معرفته وتنوعها.

وبعد استعراض قصير من طرف الكاتب على ظهور التدوين الجغرافي وتطوره التاريخي في العصور الوسطى، يستعرض الفصل الأول تاريخ حدث التواصل الحربي الأول بين العالم الإسلامي وأوروبا، فضلاً عن كيفية نقل المعرفة الجغرافية القديمة في المدونات العربية. سنتعرف في هذا الفصل - وفي فصول أخرى من الكتاب - على أهمية الميراث الجغرافي الهائل الذي انجزه بطليموس، الذي استفاد من معرفته عبدالله محمد بن موسى الخوارزمي (المتوفي في ٨٥٠). ثم يتناول الكاتب في الفصلين الثاني والثالث صورة روما والقسطنطينية في النصوص الجغرافية العربية حتى القرن الثاني عشر. وغالبًا ما كانت

تتميز الأوصاف بالمبالغة، ومصدرها اهتمام الجغرافيين بالجانب العمراني الهائل للمدينتين. وبالإضافة إلى ذلك، فقد عزز هذه الصورة أيضا قرب الإمبراطورية البيزنطية من بلاد المسلمين والصراعات بين هذه الأخيرة والمسلمين خلال العصور الوسطى التي أصبحت فيه القسطنطينية تمثل مصدر خطر حقيقي على الدول الإسلامية.

ويخصص الكاتب الفصل الرابع والخامس والسادس على التوالي لأوروبا الشرقية وأوروبا الشمالية وأوروبا الغربية. في القرنين التاسع والعاشر، ويظهر أنّ المصادر حول سكان هذه المناطق هي أكثر دقة، وخصوصا عندما يتعلق الأمر بسرد الرحلات، ويقدم الكاتب أمثلة عن ابن فضلان أو إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي. ويمكن أن نتأسف هنا على أن الاستنتاجات العامة والعناصر التحليلية التي استعرضها الكاتب من المصادر يصعب الحصول عليها وتدقيقها، نظرا لكمية التفاصيل والمعلومات الكثيرة. وهذا يدل على سعة اطلاع لا تصدق للمؤلف الذي يأخذ في بعض الأحيان الأسبقية في طرح المعلومات، فيبقى القارئ المهتم متلهفا للمزيد من المعارف التاريخية، وانتظار بضعة أسطر إلى أن يصل إلى استنتاج أو ملخص لكل فصل من الفصول، التي تسمح له بفهم تلك الرهانات والتحديات الجيوسياسية والديموغرافية التي تحكمت في التدوين الجغرافي.

وبعد أن نتتبع المسار الذي سلكه إبراهيم بن يعقوب الطرطوسي خلال جولته في أوروبا الأثونية في النصف الثاني من القرن العاشر، يعكف المؤلف في الفصل الثامن، على نصوص من القرن الثاني عشر، ويلاحظ القارئ بروز الخطوط العريضة للخطاب الجغرافي عن أوروبا ، مكتسبا التنوع والدقة. وهنا يحضر من الكتاب العرب الأكثر شهرة عند المؤرخين الأوروبيين، مثل الإدريسي، على وجه الخصوص، والحميري وغيرهما. يبرهن المحتوى الوصفي للمصادر أنه كان يُنظر إلى أوروبا على أنها مجالات متداخلة بشبكة طرق كثيفة، محفوفة بمناطق مدنية وخصبة. أمّا على المستوى الديني، فيحدد الجغرافيون العرب السكان الأوروبيين على أنهم مسيحيين، في حين بقي معظم هؤلاء السكان حتى القرن العاشر مرتبطين بالوثنية.

بعد ذلك خصص الكاتب فصلين لمكانة روما والقسطنطينية في المصادر حتى القرن الثاني عشر، يعود جان تشارل دوسين إلى العاصمتين المسيحيتين وما وصف بهما في النصوص اللاحقة. نلاحظ عندئذ أنّ المعلومات المتعلقة بروما تنفصل تدريجيا عن الواقع، ولا تستوفي معالمه أو تنزلق إلى عالم الخيال، بينما تظل القسطنطينية مكانًا يجتذب اهتمام المؤرخين الذين كانوا يتابعون التطور العمراني للمدينة. سيتغير الخطاب الجغرافي كليا في العصر المملوكي. بحيث كان لتكثيف العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين أوروبا وسفارة القاهرة تأثير

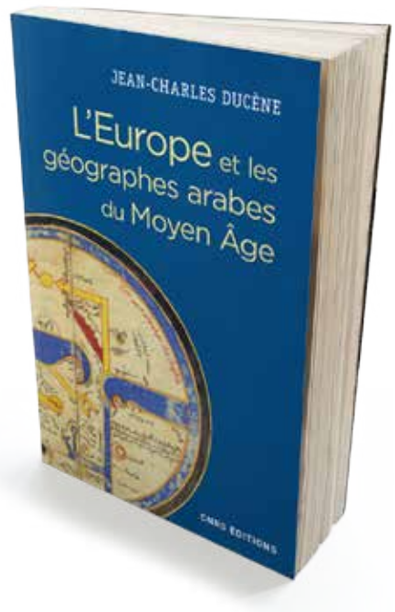

على تصورات الجغرافيين لأوروبا، والتي اكتسبت الدقة وفي الوقت نفسه، أعادت التركيز على الكيانات السياسية المتنافسة أو المتحالفة معها، التي تتمركز في العواصم فقط، وتقدر حسب قوتها. ومع سقوط الأندلس سيتوجه التدوين الجغرافي، نحو مناطق هامشية مثل شواطئ البحر الأسود، في هذه الفترة سيبرز شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري (توفي عام ١٣٤٩) وهو من أهم الرحالة في عصره ويعد كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» تحفة جغرافية. قام فيها بدراسة الجغرافية السياسية، ودرس تواريخ الأمم وعجائبها، ودرس الفلك، وتجول في البلاد من الشام إلى الحجاز والأناضول وغيرها من المناطق. كما حاول في مصنفه تحديث المعلومات السابقة وتثبيت معلومات جديدة مبنية على المشاهدات المباشرة، كما يقدم تأملات حول مفهوم المملكة - بمعنى الدولة وحول الوسائل اللازمة لتسييرها بشكل صحيح. وأخيراً، يدعم عمله الجغرافي بخريطة جيوسياسية للقوى ذات النفوذ في البحر الأبيض المتوسط. هذه الجانب الأخير هو الأكثر أهمية وبه ينهي الكاتب الفصل الأخير، حيث يبرز أنّ الخطاب الجغرافي في القرون المتأخرة من العصر الوسيط ستنزلق نحو مسألة تجسيد هذه الكيانات السياسية، ويقلل من مساحة العمل وصف عاصمة أو كيان سيادي، وهكذا تختفي أوروبا الشمالية والغربية لصالح شواطئ البحر الأبيض المتوسط، حيث المنافسة السياسية والحربية والتجارية والدبلوماسية بين الكيانات السياسية في جنوب أوروبا والعالم الإسلامي محتدمة وأكثر إثارة لانتباه الجغرافيين العرب.

يقدم الكاتب خاتمة رفيعة تسمح باستكمال قراءة هذا الكتاب بأفكار واضحة حول تطور الخطاب الجغرافي العربي الاسلامي حيث سنخلص إلى أن الأعمال الجغرافية الأولى، كانت تركز على العرق الجغرافي لأوروبا، هذه الجغرافيا العرقية المتباينة تعارض صورة الأمة الإسلامية التي ألغى فيها الإسلام هذه الهويات العرقية. وقد سمح الاتصال المباشر للرحالة مع هؤلاء السكان - خاصة في أوروبا الشرقية - بتطوير المعارف. ربما تأتي المساهمة الأكثر إثارة للاهتمام في هذه التصور الجغرافي الاسلامي لأوروبا الغير متجانسة، أنها في الواقع تم تصورها في فضائها المسيحي - بصرف النظر عن نفوذ الامبراطوريتين الكارولنجية والبيزنطية. فبعد القرن الثاني عشر، ستتوسع الأراضي البحرية والبرية، لهذا سيحضر الفضاء الجغرافي بدقة، وتصبح الديانة المسيحية سمة لهذه الجغرافيات، التي تتجسد، من الآن فصاعداً في المدن وصلاحيات الدولة التي أصبحت معالمها أكثر وضوحا. تعد الأسطر القليلة التي خصصها جان شارل دوسين لتطور المصطلحات المستخدمة لوصف هذه الأراضي الأوروبية مثيرا للاهتمام بشكل خاص ويعكس هذا التصور التدريجي للأراضي الأوروبية في أذهان الجغرافيين.

يمكن القول أن قراءة الكتاب لا تخلو من التعقيد لأن الموضوع غني وشاسع ويستند فيه المؤلف إلى معرفة مفصلة ودقيقة عن تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، والعالم اللاتيني، والعالم الإسلامي في العصور الوسطى، متنقلا بين ما وصفه الرحالة من عادات وتقاليد وأعراف وفنون وأساطير وديانات وحياة سياسية وتجارية. وهو ما سمح للكاتب بالرجوع إلى معلومات غنية ونادرة وردت في مصادر عزيزة المنال، لإنجاز عمل تأريخي فذ. نجد فيه تأملا معمقا، في كثير من الأحيان، يحيل على معلومات جديدة ومفاجئة، تؤكد تمكّنَ الكاتب من مصادره المعتمدة. بالإضافة إلى ذلك، في خاتمة كتابه ينصح الكاتب الدارسين بضرورة إتقان العديد من اللغات القديمة، ومن بينها اللغة العربية، لكي يتمكن الباحث من سبر هذه الكنوز، بالمقارنة والتمحيص بين المصادر التاريخية والجغرافية الأصلية التي قدمت صورة متباينة ومتنوعة وغريبة في بعض الأحيان عن أوروبا من شرقها إلى شمالها وغربها ونزولا إلى جنوبها، والتي عكست، في بعض الأحيان، تصورا عربيا وإسلاميا يصعب فهمه إذا لم يردّ إلى مصادره الأصلية وسياقاته التاريخية والثقافية والسياسية.

عنوان الكتاب: أوروبا و الجغرافيون العرب في العصور الوسطى من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر.
المؤلف: جان شارل دوسين
دار النشر: CNRS ، باريس، فرنسا
سنة النشر: ٢٠١٨
عدد الصفحات: ٥٠٠ ص
اللغة: الفرنسية

*** كاتب مغربي**

الأسلحة الكونية
ليعقوب كاتز وأمير بوحبوط

أميرة سامي *

من الأقمار الصناعية إلى أنظمة الدفاع الصاروخية، من الطائرات بدون طيار إلى الحرب السيبرانية، تقف إسرائيل على خط المواجهة في ساحة المعركة الحديثة، مسلحة بتكنولوجيا عسكرية متطورة. كيف فعلت ذلك؟ ما سر نجاحها الفريد؟ هذا هو السؤال الكامن وراء هذا الكتاب، «الأسلحة الكونية». هذا هو السؤال الذي يجيب عليه الكتاب مع الكثير من القصص حول التحديات والحلول، وخيبات الأمل، والاختراقات.

هذا كتاب عن الأسلحة التي تمَّ تطويرها وتشكيلها في أوقات مختلفة وتحت ظروف مختلفة. هذا كتاب عن الثقافة. ثقافة إسرائيلية فريدة من الجرأة والابتكار. ثقافة حولت إسرائيل إلى قوة عظمى عسكرية.

يعقوب كاتز، رئيس تحرير صحيفة جيروزاليم بوست، كان لمدة عشر سنوات المُراسل والمعلق العسكري للصحيفة. في عام ٢٠١٢ كان زميلًا رفيعًا في مركز نيمان للاتصالات في جامعة هارفارد صدر كتابه السابق «إسرائيل مُقابل إيران - حرب الظل» وتمَّ نشره من قبل دار نشر كينيرت في عام ٢٠١١.

أمير بوحبوط مراسل ومعلق في الشؤون العسكرية والأمنية في صحيفة «واللا نيوز»، وكان مراسلًا للجيش في معاريف، وهو طالب دكتوراه في الاستخبارات والإرهاب في جامعة بار إيلان.

لم تكن نابلس مُجرد مدينة فلسطينية أخرى. فخلال الانتفاضة عام ٢٠٠٠، التي عرفت باسم الانتفاضة الثانية، أصبحت نابلس موطن معظم المطلوبين من قبل إسرائيل، في ذلك الوقت كان غانتز قائداً لشعبة يهودا والسامرة. قام مقاتلون من الجهاد الإسلامي وحماس بإنشاء مختبرات لصنع القنابل، ومقر رئيسي في جميع أنحاء متاهة حجارة القصبة والمدينة القديمة. كان حي «القصبة»، الذي أسسه الرومان ثم بناه المماليك والأتراك فيما بعد، مشهوراً بشبكة أنفاقه وأماكن اختبائه، وهو مكان مناسب للأعمال الفدائية.

بعد عملية الدرع الواقي (عملية الدرع الواقي هي عملية قامت بها القوات الإسرائيلية في إطار محاولة القضاء على الانتفاضة الفلسطينية الثانية،)، غالبًا ما تم إرسال جنود جيش الدفاع الإسرائيلي لمداهمة المدينة، للبحث عن الفدائيين والقبض عليهم. لكن في بداية العقد، ازدهرت نابلس وكان مستوى العمليات الفدائية أقل من أي وقت مضى، وقلل جيش الدفاع الإسرائيلي بدرجة كبيرة من اختراقه للمدينة.

بعد انتهاء الانتفاضة، حاولت الحكومات الإسرائيلية المُتعاقبة التفاوض على اتفاق سلام مع الفلسطينيين في عام ٢٠٠٨، واقترح إيهود أولمرت اقتراحاً للرئيس الفلسطيني محمود عباس، لكن تم رفضه. في عام ٢٠٠٩، وافق رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو على تجميد البناء في المستوطنات في محاولة لاستئناف محادثات السلام. كانت خطوة غير مسبوقة، وعلى الرغم من إعادة فتح المحادثات، إلا أنها فشلت في التوصل إلى اتفاق.

خلال زيارة غانتز، سجلت البورصة الفلسطينية، التي يوجد مقرها في نابلس، مستويات قياسية في الفترة التي عانت فيها الأسواق في أنحاء العالم العربي من انخفاض الأسعار. ومن المتوقع أن تجرى جولة جديدة من محادثات السلام قريباً.

لكن جولة غانتز في الضفة الغربية كان لها هدف آخر ويذكرالمؤلفان أنَّه: « قبل عدة سنوات، بدأت المظاهرات في الشوارع في تونس، ثم انتشرت وخلقت ما يعرف باسم الربيع العربي. تم القبض على معمر القذافي وأعدم في ليبيا، وتم إسقاط حسني مبارك في مصر، وواصل بشار الأسد مُحاربة المتمردين في سوريا في حرب صاخبة ودموية ومثيرة للجدل من شأنها أن ترى صعود الدولة الإسلامية والجهاد العالمي. وفي لبنان، واصل حزب الله تجميع الأسلحة المتطورة.

وفي الدوائر الأمنية في إسرائيل، زادت المخاوف من انتشار عدم الاستقرار، وقد أراد غانتز التأكد من وجود هدوء في الضفة الغربية أم لا، وإذا لم يكن كذلك، فإنَّ جيش الدفاع الإسرائيلي سيكون جاهزًا.فعندما كان الشرق الأوسط في خضم اضطرابات تاريخية كان القائد الأعلى للجيش الإسرائيلي يُريد التأكد من أن جنوده مستعدون للحرب أم لا وقال غانتز: «على هذا المستوى من عدم اليقين في المنطقة، ربما لن يكون لدينا متسع من الوقت لتلقي تحذير في المرة القادمة التي تطرق فيها الحرب على الباب». «لكننا سنفوز لأنَّ جنودنا سيكونون مستعدين، وسيكون لديهم أفضل تكنولوجيا لمساعدتهم».

في سماء نابلس، راقب ضباط الجيش الإسرائيلي من دون طيار عن كثب المدينة الفلسطينية والجنود الإسرائيليين المتمركزين في مكان قريب. وفي وقت سابق من ذلك العام، أطلق جيش الدفاع الإسرائيلي «برنامج سكاي رايسر»، الذي قام بتجهيز كتائب في المنطقة بخفيفة «مزروع إفرن»، صنعتها شركة «إلبيت»، وهي شركة أمنية إسرائيلية رائدة. من الأقمار الصناعية إلى أنظمة الدفاع الصاروخية والطائرات بدون طيار، أصبحت إسرائيل على الخط الأمامي للتكنولوجيا العسكرية الجديدة المنتشرة في ساحة المعركة الحديثة.

يحكي هذا الكتاب قصة الطرق التي أصبحت بها إسرائيل - وهي دولة صغيرة يبلغ عدد سكانها ثمانية ملايين نسمة - واحدة من أهم القوى العسكرية الكبرى في العالم، حيث تعمل على تطوير التكنولوجيا التي تغير طريقة خوض الحروب في جميع أنحاء العالم.

لقد أدى نجاح إسرائيل إلى نجاح عمالقة الصناعة وصانعي الأسلحة وحتى البلدان الأجنبية ترغب في معرفة هذا المزيج الفريد من الابتكار والأداء والتكنولوجيا. يتم توقيع مشاريع مشتركة بين الشركات الكبيرة في الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا والهند وروسيا وأستراليا، وشركات الأمن في إسرائيل وهي في بعض الأحيان جزء صغير من حجم نظيراتها الأجنبية.

وفقاً لـ Jaynes (هي شركة إعلانات متخصصة في النقل والشؤون العسكرية)، نشر التجارة العسكرية البريطانية، إسرائيل هي واحدة من أكبر ستة مصدرين للأسلحة في العالم. تمثل الأسلحة وحدها حوالي ١٠٪ من إجمالي صادرات إسرائيل، ومنذ عام ٢٠٠٧، قامت إسرائيل بتصدير أسلحة تبلغ قيمتها حوالي ٦,٥ مليار

دولار سنوياً. وفي عام ٢٠١٢، قامت شركاتها الألف في مجال الدفاع بوضع سجل جديد وتصدير أسلحة بقيمة ٧,٥ مليار دولار.

على الرغم من صغر حجمها، تستثمر إسرائيل أكثر من أي بلد آخر في البحث والتطوير - حوالي ٤,٥٪ من الناتج المحلي الإجمالي - وتصنف قائمتها كأكثر دولة ابتكارية في العالم. في حين أن استثمار إسرائيل في البحث والتطوير مثير للإعجاب في حد ذاته، فإنَّ حوالي ٣٠٪ يذهب إلى منتجات ذات طبيعة عسكرية. وفي المقابل، فإنَّ ٢٪ فقط من البحث والتطوير الألماني و١٧ ٪ من البحث والتطوير في الولايات المتحدة هي عسكرية.

وكما كتب فريد زكريا، الكاتب والمذيع في شبكة سي إن إن، عن إسرائيل: «إن أسلحتها أكثر تطوراً، وأحياناً أقرب من تلك المستخدمة من قبل خصومها. وأن الميزة التكنولوجية الإسرائيلية لها تداعيات عميقة على ساحة المعركة الحديثة «.

لكن لماذا إسرائيل؟ كيف فعلت ذلك؟ ما سر نجاحها؟ هذا هو اللغز الذي سيُحاول هذا الكتاب أن يحلّه من خلال القصص حول الطرق التي طورت بها إسرائيل سلاحها وتكتيكاتها الفريدة الخاصة بها.

غالباً ما توصف إسرائيل بأنَّها متناقضة لقد حاولت تحقيق السلام مع الفلسطينيين منذ عقود، لكنها فشلت حتى الآن رغم نجاحها في تحقيق السلام مع مصر عام ١٩٧٩ ومع الأردن في عام ١٩٩٤. ويذكر المؤلفان على الرغم من هذا أن أحد التفسيرات لنجاح إسرائيل الاقتصادي والعسكري يتعلق بنمط التهديدات التي تواجهها البلاد ومعركتها المستمرة من أجل البقاء منذ بدايتها. وبينما كانت الظروف صعبة فإنَّ الضغوط التي واجهها الإسرائيليون في البداية أجبرتهم على تطوير الموارد الحيوية مثل القدرة على الارتجال والتكيف مع الحقائق المتغيرة التي يحتاجون إليها للبقاء. فعندما كانت الموارد التي يمتلكها الإسرائيليون الذين هاجروا إلى الدولة الجديدة لا تتعدى رأس المال البشري كان على الإسرائيليين أن يستفيدوا إلى أقصى حد من القليل الذي لديهم وحتى اليوم في أماكن مثل إيران، تعزز الإبداع بمعنى آخر، إذا لم تكن إسرائيل مبدعة في تفكيرها، فإنها ببساطة لن تبقى.

هذه معادلة بسيطة، وكما قال حاييم إيشد، الرجل الذي طرح فكرة برنامج الأقمار الصناعية الإسرائيلي: «إن ظل المقصلة يشحذ الفكر».ولكن هذا يمكن أن يكون فقط جزءا من الجواب. إسرائيل ليست الدولة الوحيدة في العالم التي تزدهر رغم الشدائد. كوريا الجنوبية، على سبيل المثال، تواجه تهديدات أمنية وطنية مماثلة، ولديها اقتصاد ينمو بسرعة، لكنه غير معترف به في السوق العالمية بفضل صناعتها الدفاعية.

قال مارتن فان كريفيلد، المؤرخ العسكري الشهير، «هذا

المزيج من عدم الرسمية وعدم وجود التسلسل الهرمي هو أكبر ميزة لإسرائيل على الدول الغربية الأخرى».

«إسرائيل صغيرة نسبياً والجميع يعرف الجميع، وبما أنَّ الجميع تقريباً يخدمون في جيش الدفاع الإسرائيلي، فمن السهل جداً تقريب المسافة».وقد تظهر ثقافة غير رسمية تفتقر إلى التسلسل الهرمي على السطح على أنها تهدد قدرة بلد أو منظمة على الانخراط في التفكير الإستراتيجي على المدى الطويل. لكن في إسرائيل هذا له تأثير معاكس. إزالة الحواجز يخلق جوا يشجع ويسهل تبادل الأفكار الحرة. عندما يستطيع الضباط بدرجات متفاوتة التحدث على مستوى العين والتحدث بحرية مع بعضهم البعض، فهذا هو بالضبط نوع المناقشة اللازمة لتعزيز الإبداع.

ما جعل برنامج تلبيوت فريدا هو تركيزه. بدلاً من تعلم مهارة واحدة، سيحصل المشاركون على تعليم متعدد التخصصات ويصبحون على دراية بكامل طيف القدرات التكنولوجية للجيش الإسرائيلي. كانت الفكرة هي تزويدهم بالمهارات اللازمة لإيجاد حلول عبر الحدود البيروقراطية والتغلب على القيود التكنولوجية. لم يمض وقت طويل ولوحظ قبل أن الخطة كانت ناجحة. بعد سنوات قليلة من تأسيسها، وعقد رئيس الوزراء اجتماعًا خاصًا لمجلس الوزراء الأمني لمناقشة الخطة. بعد ذلك قرر رئيس الوزراء أن برنامج تلبيوت ينبغي تخصيصه لجميع الهيئات الأمنية للدولة، بما في ذلك الشرطة.

قصص نجاح كثيرة، ومعظمها تبقى سرية. وقد طورت إحدى الطريقتين طريقة يمكن بها للصواريخ أن تتحرك بسرعة عشرة أضعاف سرعتها العادية عن طريق نقلها بالطاقة الكهربائية بدلاً من الكيماوي.

كانت إسرائيل أول دولة غربية تحارب الأسلحة العسكرية السوفيتية في مصر وسوريا، وأول دولة حديثة تواجه الإرهاب الانتحاري في شوارعها، قبل سنوات من لندن ونيويورك ومدريد. ومن هجوم عسكري محتمل على إيران إلى مطاردة إرهابية في الضفة الغربية من حين لآخر، تواجه إسرائيل تهديدات أكثر من معظم الدول وتقوم باستمرار بتطوير تقنية عسكرية متقدمة للتعامل مع التهديدات المختلفة، كما يقولون في هيئة الأركان العامة.

لكن في حين أنَّ تطور أسلحة إسرائيل أحدث ثورة في الحرب الحديثة، بل في الشرق الأوسط، التي ربما تكون أكثر المناطق اضطراباً في العالم. يمكن لإسرائيل أن ترى حاجتها إلى أسلحة متطورة كرد على التهديدات الخارجية، لكن هذه القدرة التكنولوجية المثيرة للإعجاب هي التي تغذي نفس سباق التسلح الذي تحاول منعه.

في عام ٢٠١٠، على سبيل المثال، بدأت إسرائيل، وفقاً للمنشورات الأجنبية، واحدة من أول الهجمات السيبرانية المعروفة في العالم. كان يطلق عليها ستوكسنت أو ستكسنت هي (دودة حاسوب تصيب نظام الويندوز) كان فيروس الكمبيوتر فعالاً إلى حد أنه قام بتدمير ما يقرب من ١٠٠٠ جهاز طرد مركزي في منشأة تخصيب اليورانيوم الرئيسية في إيران، ووفقاً لتقديرات مختلفة، فقد أخر البرنامج النووي للبلاد لما يقرب من عامين. لكن منذ ذلك الحين، أنشأت إيران وحدة إنترنت خاصة بها باستثمار يزيد على مليار دولار سنوياً لإنشاء قدرات هجومية فعالة. ويبدو أن الحرب الإلكترونية بالقوة الكاملة هي فقط مسألة وقت. بينما ينتشر عدم الاستقرار في جميع أنحاء الشرق الأوسط والبلدان الأخرى في جميع أنحاء العالم، وخاصة في أوروبا، التي تواجه تهديدات الإرهاب في المناطق الحضرية من الدول الإسلامية وغيرها من الجماعات الإرهابية وتزايد الطلب على التكتيكات والتكنولوجيا المتطورة في إسرائيل.

سيضيف هذا الكتاب طبقة إلى هذه القصة. لا يتعلق الأمر فقط بالتكنولوجيا التي جلبت النصر إلى إسرائيل والنجاح في ساحة المعركة ولكن سوف يركز أيضًا على الشعب الإسرائيلي والثقافة الفريدة التي مكنتهم من هذا. هكذا يرى المؤلفان أهمية هذا الكتاب في عالم مليء بعدم اليقين والخطر، فهي قصة نحتاج جميعًا إلى الاهتمام بها.

اسم الكتاب: الأسلحة الكونية
اسم المؤلف: يعقوب كاتز، أمير بوحبوط
الناشر: كينيريت زمورا دفير
سنة النشر: سبتمبر٢٠١٧
اللغة: العبرية
عدد الصفحات: ٢٧٢

*** أكاديمية مصرية**

«على هامش حياة جماعة آميش».. لإيه.بي. مهر علي

فيلابوراتو عبد الكبير *

للكاتب مهر علي رصيدٌ من خدمات جليلة في مجال التدريس والصحافة والإذاعة؛ حيث تقاعد أخيرًا بصفته مديرا لمحطة «كوزيكود» التابعة لإذاعة الهند العامة. وله مسرحيات حازت جوائز من إذاعة الهند، قبل أن يعمل فيها رسميا. وهذا الكتاب دراسة اجتماعية عن جماعة مسيحية في أمريكا تسمى «آميش»، الذين يعيشون حياة بدائية بعيدين عن كلِّ المرافق والتسهيلات التي تُوفرها التكنولوجيا الحديثة، لا يستخدمون سيارة ولا كهرباء ولا ماكينات حتى ساعة اليد. لا يركب أحد منهم الطائرة، إذا سافر أحد في الطيارة سيتم حتمًا إخراجُه من الجماعة ويتعرض للمقاطعة الشاملة، جميع وسائل الإعلام من التليفزيون والمذياع والحاسوب والهواتف ممنُوعة عندهم، جماعة دينية تعيش اليوم كأنها في منتصف القرن السابع عشر مُتمسكة بتقاليد غريبة، قضَى مع أفرادها الكاتب فترةً في مناطقهم للتعرف عن كثب على أساليب حياتهم المغلقة. وهذه الطائفة المسيحية مُنشقة من المسيحيين الجدد الذين يُعرفون باسم «أنابابستيت» التي نشأت في القرون الوسطى. تأسَّست طائفة آميش في العام ١٦٩٣ على يد قس سويسري يُسمى يعقوب أمان، الذي توفي في العام ١٧٣٠. وسميت الطائفة بـ«آميش» نسبة للكلمة الأخيرة «أمان» في اسم أبيهم الروحي يعقوب أمان.

في البداية، كانوا يعيشون في سويسرا والألزاس (Alsace) الفرنسي وجبال ألمانيا. لم تعترف بهم الكاثوليك والبروتوستانت من الفرق الرئيسية المسيحية، بل اتَّهموهم بالكفر والهرطقة؛ الأمر الذي جعلهم عُرضة لكثير من الملاحقة والمضايقة حتى للحكم عليهم بالإعدام ممَّن هيمن على الديانة المسيحية في تلك الحقبة؛ حيث اضطروا لأن يلوذوا بالفرار بدينهم من مناطقهم الأصلية إلى أمريكا وبالتحديد إلى بنسلفانيا. اختاروا أمريكا لأنَّ عدد سكانها آنذاك كان ضئيلا جدا، وأنها كانت خالية ممن يُعادونهم في معتقداتهم. وفي بداية القرن الماضي، كان عددهم خمسة آلاف فقط، ولكن خلال تسع عشرة سنة بلغوا ستًّا وستين ألفا. وعند طلوع القرن الجديد، أصبحوا مائة ألف وستة آلاف نسمة. وحين اكتمل العقد الأول من القرن الحالي، أصبحوا زهاء مائتي وخمسين ألفا. وبعد ست سنوات من هذا تجاوزوا ثلاثمائة ألف وثمانية آلاف. وهم الآن مُوزَّعون على ٢٢ منطقة مأهولة في الولايات المتحدة وفي ولاية أونتاريوا في كندا. تعيش أقدم جماعة من الآميش في محافظة «لانكستر» منطقة نائية زراعية في الولايات المتحدة استوطنها الآميشيون الأوائل في العشرينيات من القرن الثامن عشر.. الكثير منهم لجأوا إلى تلك المنطقة هربا من الاضطهاد الديني في أوروبا.

يُعدُّ الآميش عموما من المسيحيين، إلا أن انتماءهم الطائفي مُتنازع فيه. يضمهم المؤرخون في الطائفة البروتستانتية المحافظة، وفي الحقيقة يتبع الآميش نفس العقائد المسيحية وطريقة الحياة التي يتبعها المسيحيون الآخرون، يؤمنون بنفس المبادئ الأساسية المسيحية التي تحتوي الثالوث من الإله الواحد الشامل الأب والابن وروح القدس، كما يؤمنون بأن الإنجيل كتاب مقدس منزل من عند الله، وأن العباد جميعهم مُذنبون، وأن المسيح هو الطريق الوحيد لنجاتهم. لكنهم يختلفون عن التيار الرئيسي في تفاصيل هذه النقاط وتأكيداتها. وتتميَّز هذه الطائفة بالتشدد والغلو في العقائد والممارسات الدينية. ولو أن الآميش تفرقت إلى عدة فرق، وغرق بعضهم في يمِّ الزمان، إلا أنَّ الأغلبية منهم ظلت مُتبقية في حيز الوجود، خاصة ما يسمى الآميشيين التابعين للنظام القديم (Old Order Amish)، وهم الآميش الحقيقي المحافظ جدًّا الذين يتمسكون بالمبادئ الآميشية دون أي مصالحة، رافضين جميع التغيرات التي تتطور على مسرح الحياة. ويختلف عنهم «الآميش البيشي» (Beachy Amish)، و«الآميش آندي ويفار» (Andy Waever Amish)، و«الآميش التابع للنظام الجديد» (New Order Amish).

«ليست الطفرة هي الغنى، ولكن طفرة السلام هي الأساس لغنى النفس، ليست التسهيلات بل القيم هي التي تجعل الحياة ذات معنى».. وبنقل هذا المأثور الآميشي يفتح الكاتب باب حياة طائفة الآميش المغلق، ويغربل الأبيض والأسود منها أمام القراء. ولما وصل حدود «لانكستر»، وجد الشمس تغرب، وجميع البيوت فيها مغطاة تحت العتمة، لا يوجد إلا ضوء باهت يبث من الشمعات والفوانيس التي تولع بزيت التراب. القرية كانت تكاد تميل إلى سبات عميق. فكيف يلتقي الناس في تلك العتمة المكثفة؟ فاضطر لأن يتولى على عقبيه إلى قلب مدينة «لانكستر». الضجيج من حركة السيارات وزحمة الناس لا تزال في أوجها حينئذ بدون نهاية. فوجد لافتة كبيرة مكتوبًا عليها «أغراض آميش». كان متجرا تُباع فيه أغراض مصنوعة من قبل جماعة الآميش بدون استخدام المكائن. حيث إن بيعها مباشرة وسط المدينة ممنوع؛ حسب تقاليد الآميش كانت تُعرض للبيع بواسطة الوكلاء. لما سأل الكاتب الشخص الذي كان يجلس في واجهة المتجر عن قرية الآميش، وضح له أن الآميشيين جميعهم ربما قد استغرقوا في النوم العميق بعد أن بذلوا جهدهم الجهيد تحت شمس النهار، وأن أفضل الأوقات للقاء معهم هو يوم الأحد؛ لأن يوم الأحد يوم العطلة لهم لا يشتغلون فيه، حتى إنهم لا يذهبون إلى الدكاكين لشراء الأغراض، ولا تكون بينهم أي صفقات ولا معاملات مالية بتاتا. اللقاء مع حشودهم سهل جدا يوم الأحد؛ حيث يجتمعون لأداء الطقوسات الدينية والمآدب الجماعية في مكان واحد. فأجَّل الكاتب رحلته إلى مناطق الآميش إلى يوم آخر. فلما دخل حدود قرية الآميش حسب هذا الاقتراح، اختلفت المناظر أمامه؛ حيث برزت له مزارع واسعة وأنهار صغيرة وميادين مغطاة بالعشب ومراع عريضة وأغنام وأحصنة وبيوت الفلاحين الصغيرة. رأى لوحة مكتوبا عليها «قرية الآميش الحقيقية». تلك كانت معرضا يُعطي الزوار صورة عن أسلوب حياة الآميش. اشترى تذكرة الدخول لمشاهدة ما يوجد داخل المعرض، فوجد فيه نماذج من بيوت الآميش الخشبية، وكل شيء يتعلق بهم، معظم الأشياء مصنوعة يدويًا من الخشب. وخارج البيت ينتظر الزوار «بيت الينبوع» -بيت صغير يقع بأعلى مكان من غدير- يليه بيت آخر خاص لطبخ الأسماك واللحوم باستخدام الدخان، وتقرب منه ماكينة تشتغل بالرياح ومعمل حداد، وساقية تروي المزارع ومدرسة بحجرة واحدة وهلم جرا. ولو لم تكن فيها هواتف

ومراوح وكهرباء، إلا أن فيها ثلاجات وغسالات وسخانات وفرن، لكن كلها تشتغل إما بالغاز أو زيت التراب أو الحطب أو الفحم. مشاهدة النماذج في «القرية» لم ترو غليل الكاتب. لأنَّ هدفه لم يكن مشاهدة نماذج جامدة إنما هو هنا لمشاهدة نماذج حية. ولما فرغ من التجول في «القرية» تذكر قول الرئيس الأمريكي الأسبق «كالفين كوليدج» (Calvin Coolidge) «كل شيء في أمريكا ذو طابع تجاري يدر الأرباح». وخرج من «القرية» وفي رأسه شكوك أثارها هذا القول. أليست الدوافع وراء هذه «القرية» أيضا الفكرة التجارية الملتصقة بذهن الأمريكان؟ ليس هدفه مشاهدة مجرد نماذج مصطنعة من حياة الآميش، بل المشاركة المباشرة في تجارب حياتهم اليومية والتعايش معهم قدر الاستطاعة. فبرزت أمام عينيه محطة عربات تجرها الأحصنة، فورًا ركب على إحدى العربات يقودها آميشي اسمه «جون». استقبله جون وهو يقول «فيلكوم فيلكوم» (Wilkum Wilkum)، هكذا يتلفظ الآميشيون كلمة الترحيب الإنجليزية (Welcome)، يتحدث أغلب الآميش ثلاث لغات: لغة قريبة من الألمانية تسمى «بنسيلفانية دانش»، وهي لغة يستعملونها داخل منازلهم، ولا يتحدثون مع أقاربهم وزملائهم إلا بهذه اللغة، هي لغتهم الأم. ولغة أخرى قريبة أيضا من الألمانية تسمى «هاي جيرمان»، وهي لغة يستعملونها في صلواتهم. أما اللغة الثالثة، فهي الإنجليزية، ويستعملونها داخل مدارسهم.

وبعد أن ركب الكاتب عربة جون، بدأت حياة الآميش تتفتح على لسان جون الذي يقودها إلى ثلاث مستوطنات، تحمل أسماء ظريفة وغريبة، ويكتظ فيها الآميش-الفردوس (Paradise)، و«طائرة على يد» (Bird in Hand) و«الجماع» (Intercourse)، كل اسم يناسب فكرة الآميش. ألا يعتقدون أن حياتهم البسيطة هي حقيقة بمثابة الحياة في الفردوس؟ أوليست طائرة على يد أفضل من طائرتين في السماء حسب اعتقادهم؟ وللوهلة الأولى يلاحظ الكاتب زي السائق جون. ها هو ذا آميشي نمطي حي أمام عينيه بلحية طويلة وشارب محلوق تماما، لا أزرار لمعطفه، بل توجد عليه ثقوب وحلقات فقط، وسرواله العريض الذي يطير في الهواء كطائرة ورقية ليس له جيوب تماما مثل قميصه الأسود الطويل بدون الكمّين. وعلى رأسه قبعة مصنوعة من القش. هذه هي ملابس الآميشي. وللآميشيات أيضا ملابس خاصة يتميزن بها عن غيرهن. البنات البالغات يلبسن زيا تقليديا محافظا جدا، لا يلبسن إلا ملابس فضفاضة ذات أكمام طويلة. ثم إنهن متحجبات، ولا يسمح لهن بقص شعرهن، ويجب عليهن غطاء رؤوسهن جميع الأوقات. المتزوجات يلبسن الغطاء الأبيض بينما تلبس غير المتزوجات الغطاء الأسود. وفي الأماكن العامة والاحتفالات يلبسن الغطاء الأسود. حتى في غرفة النوم يغطين رؤوسهن، ولا يراها أحد غير أزواجهن. غطاء البطن والصدر واجب. المجوهرات الذهبية والزينات ممنوعة. حتى العرائس لا يلبسن الذهب. لا يشتري الآميش الملابس من الأسواق. جميع الملابس للأسرة تقوم بخياطتها النسوان داخل

البيت ما عدا المعطف الخاص بالعروس تتم خياطته من قبل الخياط الآميشي.

ماذا عن موقف الآميش من السياسة؟ ليس لهم موقف محدد من السياسة. لأنهم لا ينتمون إلى أي حزب سياسي، ولا يرشحون أنفسهم في الانتخابات، ولا يُدلون بأصواتهم إلا في الانتخابات البلدية؛ وذلك أيضا فقط إن كانت لهم قضية تختص بهم. لا يهتمون بعضوية في أي أندية أو نقابات كما لا يهتمون بتأمين حياتهم؛ لأن الدنيا التي تتلألأ بُرهة ثم تزول فجأة كالبرق لم تكن أبدا أكبر همهم، ولأنهم لا يجمعون المال ولا يعددونه ولا يكنزونه قناطير مقنطرة؛ لأن كنوزهم ليست في الأرض، بل في السماء حسب ما ورد في العهد الجديد: «لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ؛ حيث ينقب السارقون ويسرقون، بل اكنزوا لكم الكنوز في السماء؛ حيث لا يفسد سوس ولا صدأ، وحيث لا ينقب سارق ولا يسرقون». لا يقبلون شيئا مجانا حتى من الحكومة، لا يقصرون في استيفاء الضرائب، ولكن وفقا للقوانين فقط لا يحفظون بطاقات التأمين الاجتماعي، لا يتحاكمون إلى محاكم ولا يخدمون في الجيش، لا يوجد عندهم الطلاق، هكذا تكون حياة الآميش مجموعة من «اللآت». الأمانة هي شعار الآميش. يحكي جون حكايةَ آميشية ذهبت ذات مرة إلى «مال» كبير لشراء حاجات، وبعد أن جمعت الأغراض وصلت أمام «الكونتر» وفتحت المحفظة. ففوجئت بعدم الفلوس داخلها، إنها قد نسيت أن تأخذها، ولكن لحسن حظها كان دفتر الشيكات موجودا، ولكن المحاسب على «الكونتر» أبى أن يستلم الشيك، فاتجهت إلى كابينة المدير، فسألها ما إذا كانت لديها بطاقة المستهلكين الخاصة بذلك «المال»، أو بطاقة ائتمان، أو بطاقة البنك، أو رخصة السياقة. لم تكن لديها أي منها. كيف توجد لديها رخصة سياقة وهي ممنوعة من السياقة؟ وأخيرا سألها المدير: ماذا لديها إذن؟ فردت عليه: الأمانة. فطلب منها أن تسامحه وتسلم الشيك.

ومن ميزاتهم أيضًا أنهم لا يبنون كنائس تختص بهم؛ لأنهم يعتقدون أن الرب الإله لا يسكن في كنائس صنعتها أيادي العباد، وبما أنَّ الرب هو مالك السماوات والأرض وما فيها جميعًا، فلا يحتاج إلى كنائس يُعبد فيها، فكل بيت آميشي كنيسة.. يوم الأحد، جميع الآميشيون يجتمعون في أحد بيوتهم للصلاة والأذكار والأدعية، يوم في بيت ويوم آخر في بيت آخر مُناوبة. ليس للرهبان دور في إمامة صلاتهم، بل يختارون من بينهم بالقرعة من يؤمهم في الصلاة ويخاطبهم بتعليمات دينية. لذلك؛ يجب أن يكون كل آميشي ملمًا ببعض التعليمات الدينية الأساسية؛ لأنه لا يستطيع أحد أن يخرص مسبقا على مَنْ تكون مهمة الإمامة نتيجة القرعة. ولهم قساوسة وشمامسة ولكن ليسوا معينين من قبل سلطات عُليا مثل الفاتيكان. وتعرف قوانين الآميش باسم «أوردنانغ» لكنها غير مكتوبة. ولديهم مجلس فتوى مكوَّن من مجموعة مشائخ من كبار السن المتدينين يطلق عليه «أولد أوردر».

وأطفال الآميش لا يذهبون الى المدارس العامة، وفي العام ١٩٧٢ تم إصدار قانون في الولايات المتحدة يُستثنى الآميش بموجبه من التعليم الإلزامي، ولهم مدارسهم الخاصة يتلقون فيها العلم بمقررات محدودة، لا تدرس فيها علوم التكنولوجيا ولا الفنون الجميلة، تدرس فيها العلوم الضرورية مثل الحساب ولغات الآميش الثلاثة التي سبق ذكرها. يُديرونها بغير أي مساعدة من الحكومة. وجدير بالذكر أن هذه المدارس ليست مدارس دينية بمعنى الكلمة، في الحقيقة لا يدرس فيها الدين بتاتا، بل تدرس فيها الحياة وما يحتاج إليه في الحياة؛ مثل: الزراعة وخصائص التراب للزراعة. ويستمر الأطفال في التعليم حتى سن الرابعة عشرة فقط حيث ينصرفون بعدها إلى تعلم الحرف والمهن والزراعة، الزراعة هي العمود الفقري لحياة الآميش، وهم أفضل الفلاحين ليس في أمريكا فقط، بل في العالم أجمع.

نقرأ في الكتاب أيضًا تفاصيل عن تقاليدهم المتعلقة بالزواج والجنازة والاحتفالات، وميزتها المشتركة البساطة.. الأسرة بالنسبة لهم حصنٌ حصين، وعقيدتهم في القيم الأسرية راسخة الجذور، لا يميلون عنها قيد أنملة. ولنظرة جماعة الآميش تُشابه كبير بنظرة الغاندي إلى الحياة في كتابه «الهند المستقلة»؛ حيث يرسم خريطة مستقبل الهند مبنية على الاقتصادية الزراعية بعيدة عن الصناعات الكبيرة المزودة بالتكنولوجيا الحديثة كما يشير إليه الناقد الأدبي محيي الدين كاراشيري في مقدمة الكتاب، وهذا لا يعني أن حياة الآميش خالية من العيوب، وقد أشار الكاتب إلى السلطة الذكورية المهيمنة على حياتهم، كما أشار إلى المعاناة الصحية التي تُعاني منها هذه الجماعة؛ نتيجة عادات زواجهم من الأقارب.

- الكتاب: «على هامش حياة جماعة آميش».
- المؤلف: مهر علي.
- الناشر: (DC BOOKS) كيرالا، باللغة المحلية الهندية، ٢٠١٨م.
- عدد الصفحات: ١٣٩ صفحة.

*** مستعرب هندي**

إصدارات عالمية جديدة

آخر الإصدارات في اللغة الإيطالية
(عز الدين عناية):

– الكتاب: المسيحيون وأسفار بني إسرائيل.
– إعداد: برونيتو سَلْفاراني.
– الناشر: منشورات دوهينيان (مدينة بولونيا) "باللغة الإيطالية".
– سنة النشر: ٢٠١٨. – عدد الصفحات: ١٢٨ ص.
نصّ العهد القديم واحد والورثة اثنان، يهودي ومسيحي، فكلاهما يعدّه كتابه المُقدس. ذلك ما يحاول هذا المؤلف التطرق له من خلال توضيح كيف يقرأ كل من اليهود والمسيحيين التوراة ضمن هرمنوطيقيا مغايرة ومتناقضة أحيانًا، والتي قد تبدو للوهلة الأولى متماثلة. الكتاب يبرز التقارب والتباعد في منهجية القراءة لدى أتباع الدينين وما لذلك من أثر في العقائد والشرائع.

**** *** *** *** *** **

– الكتاب: الصراع العربي الإسرائيلي من منظور
– الحركة الاجتماعية الإيطالية (١٩٤٦–١٩٧٣).
– تأليف: ماركو فرانشيسكوني.
– الناشر: منشورات أوروبا (روما) «باللغة الإيطالية».
– سنة النشر: ٢٠١٧. – عدد الصفحات: ١٩٠ ص.
الحركة الاجتماعية الإيطالية (١٩٤٦–١٩٧٣)
منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية مثّل الصراع العربي الإسرائيلي أحد المحاور المهمة المطروحة في الساحة الدولية. فضلاً عن اندراج ذلك الصراع ضمن سياق الحرب الباردة. يحاول الكتاب رصد المواقف الإيطالية، سيما منها مواقف اليمين، من قضية فلسطين عبْر عرض مختلف السياسات والأطراف.

**** *** *** *** *** **

– الكتاب: الفوز بالتفاحة الذهبية.
– تأليف: ماسيمو فيليونه.
– الناشر: منشورات سولفانيللي (مدينة كياتي) "باللغة الإيطالية".
– سنة النشر: ٢٠١٨. – عدد الصفحات: ٣٥٩ ص.
عنوان الكتاب رمزي وفيه إلماح إلى المدينة المُقدسة روما. يحاول المؤلف ماسيمو فيلونه وهو مؤرخ استعراض مختلف مراحل علاقة الدولة العثمانية ببابوات روما في السلم والحرب. الكتاب يُغطّي الفترة الممتدة بين ١٢٩٩ وإلى غاية ١٧٣٩م، وهي فترة حافلة بالاجتياح والاجتياح المضاد والحرب والحرب المضادة من الجانبين الإسلامي والغربي.

**** *** *** *** *** **

آخر الإصدارات في اللغة الفرنسية
(سعيد بوكرامي):

– الكتاب: الخروج من الفوضى
– المؤلف: جيل كيبيل
– الناشر: دار غاليمار. فرنسا
– تاريخ النشر: ٢٠١٨ – عدد الصفحات: ٥٢٨ص
من أين جاءت هذه الفوضى، وهل يمكن الخروج منها نهائيًا بعد القضاء على مصادر الإرهاب؟ يضع هذا الكتاب الأحداث العربية والدولية في سياقها التاريخي. منذ حرب ١٩٧٣ إلى ارتفاع سعر البترول وانتشار الجهاد. ومن خلال مراحله الثلاث ومنذ أفغانستان والقاعدة. ثم يقترح السرد الأول والكامل والاسترجاعي عن الربيع العربي بدءا بالتغيير في تونس وانتهاء بالأحداث الرهيبة في سوريا.
وأخيراً، فإنّه يكشف خطوط التصدع والضغط الذي تُمارسه موجات المهاجرين في منطقة البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط، مسلطًا الضوء على الخيارات الحاسمة التي اتخذها إيمانويل ماكرون ودونالد ترامب وفلاديمير بوتين. وتأثيرها على الشعوب وقادة هذه المنطقة – وكذلك مواطني أوروبا. استفاد جيل كيبيل من خبرته الممتدة على مدى أربعة عقود، ومستعينا بمرجعية وخرائط جديدة وغير معروفة. ومستنداً إلى معرفة عميقة باللغة العربية وخصائص العالم العربي السياسية والثقافية والعقائدية.

**** *** *** *** *** **

– الكتاب: عوالم البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى
– المؤلف: جماعة من المؤلفين
– الناشر: دار أرمان كولان. فرنسا
– تاريخ النشر: ٢٠١٨ – عدد الصفحات: ٢٥٦ص
يستعرض كتاب: «عوالم البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط» تاريخ البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى، تلك المنطقة المشتركة بين أفريقيا وآسيا وأوروبا، والتي تشكلت من مراحل من التوسع أو الانكماش والتي تعبر أيضا عن فضاء جيوسياسي من الخصائص الحضارية المتجانسة والغير متجانسة أيضا.
يتميز إذن هذا الفضاء الشاسع بالتنوع، والتهجين، والقدرة على الاختراع المتجدد، ولكن أيضا بالمصادمات ورفض الاختلاف. أراد مؤلفو الكتاب تسليط الضوء على التنوع الكبير في عوالم البحر الأبيض المتوسط، وبعيدا عن الفكرة الخيالية الجغرافية والبشرية في العصور الوسطى، التي يمكن حصرها في المعارضة بين المسيحية والإسلام.
وقد اختار مؤلفو الكتاب تقديم سلسلة من دراسات الحالة المخصصة لموضوعات لم تناقش من قبل إلا لماما ، مما سلط الضوء على القضايا التي تؤثر على المجتمعات والأقاليم والمجالات الثقافية. كما يقدم الكتاب وثائق، غير منشورة في كثير من الأحيان، ويسمح باستنتاجات موضوعية حول دراسات الحالة من منظور واسع يضمن تماسكا شاملا.

**** *** *** *** *** **

– الكتاب: العالم الإسلامي من الجذور إلى القرن الحادي عشر
– المؤلف: فليب سيناك
– الناشر: دار أرمان كولان. فرنسا
– تاريخ النشر: ٢٠١٨ – عدد الصفحات: ٢٧٢ص
إن دراسة العالم الإسلامي ضرورية لفهم التوازنات الكبيرة في العصور الوسطى، ولكن أيضاً لإلقاء الضوء على معرفتنا بالعالم العربي المعاصر. في الواقع، ظهرت في بداية القرن السابع، حضارة جديدة، قلبت بشكل كامل بنية العالم القديم لتلد إمبراطورية هائلة تمتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي.
وللتعامل مع هذا الفضاء، حيث ترتبط السياسة والدين ارتباطًا وثيقًا، فإن هذا التاريخ من العالم الإسلامي من بدايته إلى القرن الحادي عشر قد فضل عمداً مقاربة مبنية على الأحداث الواقعة في السنوات ما بين ٩٥٠ و١٠٥٠، وهي فترة محورية حدثت خلالها أحداث مهمة تجلت في تغيرات حضارية في العالم العربي والإسلامي.
يتضمن الكتاب صورا ونسخا من مخطوطات وخرائط ومقتطفات عديدة من النصوص تثري الكتاب وملفاً من الملاحق تقدم عناصر مختلفة مخصصة للتعليقات موفرة للقارئ الأدوات اللازمة لفهم الحضارة الإسلامية.

**** *** *** *** *** **

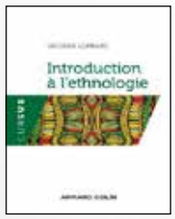

– الكتاب: مقدمة لعلم الإثنولوجيا
– المؤلف: جاك لومبارد
– الناشر: دار أرمان كولان. فرنسا
– تاريخ النشر: ٢٠١٨ – عدد الصفحات: ٢٥٦ ص
هذه مقدمة لعلم الإثنولوجيا (علم الإنسان)، تتناول الاتجاهات الرئيسية للفكر والكتاب والباحثين الذين صنعوا تاريخ الإثنولوجيا، وكذلك الأساليب والمفاهيم الأساسية التي تأسس عليها هذا العلم المثير للجدل.

إصدارات عالمية جديدة

منذ نظرية التطور إلى نظرية الانتشار الثقافي إلى البنيوية ومن ليفي شتراوس إلى الماركسيين الجدد المنتسبين للمدرسة الفرنسية. تشمل هذه البحوث – المجالات الرئيسية للبحوث الإثنولوجية – السياسة والاقتصاد والدين، بالإضافة إلى الأبحاث التابعة لمدرسة الإنثروبولوجيا الثقافية الأميركية والإنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية.

يفضل الكاتب مقاربة شاملة ومقارنة لهذه التيارات الفكرية، وتأثيراتها المتبادلة بين المدارس ودور «الاستخدامات المنهجية» وبعض العلوم المجاورة. الكتاب عبارة عن نصوص مرجعية أو متعمقة في المفاهيم الأساسية، بعضها عام يهتم بالثقافة وبنياتها المؤسسة والبعض الآخر خاص يهتم ببعض المجالات المخصصة مثل طرائق حياة الأفراد والجماعات في الماضي والحاضر. مثل التربية والتعليم، والتحضر والسكان، والتنمية وغيرها.

** *** *** *** *** ****

آخر الإصدارات في اللغة الإنجليزية
(محمد الشيخ)

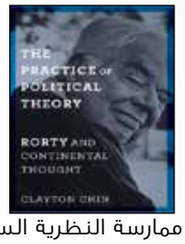

– عنوان الكتاب: ممارسة النظرية السياسية (رورتي والفكر القاري)
– المؤلف: كلايتون شين – اللغة: الإنجليزية
– دار النشر: مطابع جامعة كولومبيا
– البلد: الولايات المتحدة الأمريكية
– سنة النشر: ٢٠١٨

يسعى هذا الكتاب إلى تقديم إجابة عن السؤال الذي تطرحه أزمة الأسس الفلسفية التي صاحبت نمو الفكر السياسي في زمننا هذا: كيف نجد تسويغا للادعاءات التي تنهض عليها القرارات السياسية والنقد الاجتماعي؟ كيف ندبر مسألة التعددية التي أضحت تثير الكثير من الإشكالات؟ يستعين المؤلف بمتن الفيلسوف الأمريكي المعاصر ريتشارد رورتي (١٩٣١–٢٠٠٧)، ولا سيما منه كتاباته السياسية غير المعروفة في جزء كبير منها للقارئ العربي وغير المترجمة إلى لسان العرب، لكي يبرز تدخلات الفيلسوف المنهجية في الفكر السياسي، مبرهنًا على أن اتخاذه لهذا الفيلسوف مُعينا يعود إلى مقدرته على مدنا بالأدوات التي تسمح لنا بطرح الأسس الفلسفية لأهم القضايا السياسية في عصرنا. ويقدم المؤلف مثالا على صحة دعواه ببيان أن من شأن مفهوم «الفلسفة من حيث هي سياسة ثقافية» أن يمدنا بمعين لإقامة نماذج لنقد اجتماعي سياسي. ثم يجري المؤلف حوارا خصبا بين فلسفة رورتي والفلسفة القارية الأوربية المعاصرة، لا سيما حول مسألة التعددية التي صارت أم المسائل السياسية في الفكر الغربي المعاصر.

** *** *** *** *** ****

– عنوان الكتاب: كانط (في الشر وخداع النفس والإصلاح الخلقي)
– المؤلف: لورا بابيش
– اللغة: الإنجليزية
– دار النشر: مطابع جامعة أوكسفورد
– البلد: إنجلترا – سنة النشر: ٢٠١٨

لطالما اهتم الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (١٧٢٤–١٨٠٤) بمسألة «الشر»، لا سيما في كتابه الذي صار اليوم أهم كتاب مقروء من بين كتبه: «الدين في حدود مجرد العقل» (١٧٩٣). وقد ركز فيه على فكرة أن الشر جذري في الإنسان؛ أي أنه منغرس في الذات البشرية، متمكن منها غاية التمكن، وأنه متعلق بمخادعة الإنسان لنفسه. والحال أن هذا الشق الثاني من أطروحة كانط حول «الشر» لم يهتم به الباحثون، ومن هنا تجد صاحبة الكتاب منطلقها للنظر في فكرة «الشر» عند كانط، مبرزة دور هذه الفكرة في الإصلاح الخلقي عند فيلسوف كونيجسبورج. وتتساءل صاحبة الكتاب: ما الذي تعنيه مخادعة الإنسان لنفسه عند كانط؟ وما طبيعة صلتها بالشر؟ ولماذا ينبغي أن تحل المعرفة بالنفس بديلا عن المخادعة للنفس؟ وتحلل المؤلفة أطروحة كانط القائلة بأن منشأ الشر إنما هو عن محبة الإنسان المبالغ فيها لنفسه، وأن أمر الشر أنه متجذر غاية التجذر في النفس البشرية. وتقف بالتحليل والتدليل على أفكار كانط الخاصة بدور المؤسسات الاجتماعية والعلاقات التفاعلية بين الأفراد في تيسير عملية معرفة الإنسان لذاته، بالبدل من مخادعة المرء لنفسه؛ تلك المعرفة الضرورية لقيام إصلاح أخلاقي.

** *** *** *** *** ****

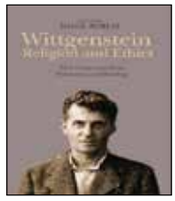

– عنوان الكتاب: فيتجنشتاين (الدين والأخلاق)
– المؤلف: كتاب جماعي تحت إشراف مايكل بيرلي
– اللغة: الإنجليزية
– دار النشر: دار كونتينيوم
– البلد: إنجلترا – سنة النشر: ٢٠١٨

يعد الفيلسوف النمساوي لودفيغ فيتجنشتاين (١٩٨٩–١٩٥١) أكبر فيلسوف معاصر حظي بأكبر عدد من الكتابات والتعاليق على أعماله الفلسفية والمنطقية، على قلتها وقتورها. وأغرب ما فيه أنه ما كتب إلا كتابات نادرة جدا وقليلة الصفحات عن «الأخلاق» و«الجماليات» و«الدين» و«الاعتقاد» أُلِّفَت حولها مئات الكتب بمختلف اللغات. لقد فكر فيتجنشتاين كثيرا، وكتب قليلا، فكان رجلا مُقِلًّا. حاول مختلف المتدخلين في هذا الكتاب الجديد التركيز على مبحثين من المباحث التي تعلقت بها كتابات فيتجنشتاين النادرة: مبحث الأخلاق ومبحث الدين. ولم يكتف هؤلاء الباحثون بتحليل عمل الفيلسوف في هذين المضمارين، وإنما واجهوا أنظاره بأفكار أعظم المفكرين في هذا الميدان: من أقرب تلامذة الفيلسوف إلى أبعد الفلاسفة عن روح فكره، قديما وحديثا. وقد تناول كل مبحث من المبحثين جملة من الباحثين المتخصصين، مركزين لا سيما على موضوع يعود الفضل إلى فيتجنشتاين في افتتاح القول الفلسفي فيه: موضوع اللغة الدينية.

** *** *** *** *** ****

آخر الإصدارات في اللغة العبرية
(أميرة سامي)

– اسم الكتاب: كل حدود إسرائيل
– المؤلف: شاؤل أريلي
– الناشر: يديعوت سفاريم
– سنة النشر: نوفمبر ٢٠١٨
– اللغة: العبرية – عدد الصفحات: ٤٤٢ صفحة

يتناول هذا الكتاب إنشاء إسرائيل، حيث لم يتم حذف موضوع الحدود من جدول أعمالها الوطني. وأن الصراع بين الإسرائيليين والفلسطينيين على الأراضي هو أيضا صراع المجتمع الإسرائيلي من أجل تحديد هويته الجماعية، والطريقة التي يرى بها نفسه، وموقفه تجاه الشعوب الأخرى والعالم.

** *** *** *** *** ****

– اسم الكتاب: نهاية اليهودية في الدول الإسلامية
– المؤلف: شموئيل تريغانو
– الناشر: الكرمل
– سنة النشر: نوفمبر ٢٠١٨
– اللغة: العبرية – عدد الصفحات: ٢٧٥ صفحة

يقدم هذا الكتاب قصة تدمير ١١ جماعة يهودية في الدول الإسلامية ويتناول الجانب الخفي للقومية في الدول الإسلامية ودوره في الصراع اليهودي العربي في الشرق الأوسط، ففي مقابل ٦٠٠،٠٠٠ لاجئ عربي فروا أو طُردوا من ديارهم بعد أن هاجمت سبع دول عربية إسرائيل بتأسيسها عام ١٩٤٨، هناك ٩٠٠،٠٠٠ لاجئ يهودي طُردوا من ديارهم في ١١ دولة إسلامية في الأربعينيات والخمسينيات.

** *** *** *** *** ****

– اسم الكتاب: المستقبل وفقا لبيريز
– المؤلف: أوري سافير – الناشر: يديعوت سفاريم
– سنة النشر: نوفمبر ٢٠١٨
– اللغة: العبرية – عدد الصفحات: ٢٠٥ صفحة

شمعون بيريز كان يعتقد اعتقادا راسخًا بأن إسرائيل كانت قوية بما يكفي لبدء وتنفيذ حل الدولتين لإنقاذ ديمقراطيتها، ورأى إسرائيل كثورة في الحياة اليهودية ورفض قبول مصير الشعب اليهودي على أنه خاضع للعداء الأبدي ومعاداة السامية. وقد وضع بيريز إطار ومضمون لمبادرة من شأنها دفع الشرق الأوسط نحو السلام هذه المبادرة، التي صاغها بيريز بكل تفاصيلها، تنشر لأول مرة في هذا الكتاب.

قريباً في الأسواق..

مجلة التفاهم

رؤية الميثاق ونظرية العقد الاجتماعي

افتتاحية العدد: رؤية الميثاق ونظرية العقد الاجتماعي
عبد الرحمن السالمي

المحاور

- الرؤية القرآنية لحقوق الإنسان: من الخصوصية إلى الكونية - محمد عالي الجماني.
- مقصد الحريّة كفرع للتصور الكوني في الإسلام - طه لحميداني.
- الميثاق والعهد والعقد الاجتماعي في الفكر الإسلامي - رضوان السيد.
- حقوق الإنسان من خلال المواثيق والبيانات الدولية والإسلامية - محمد عبدالواحد العسري.
- الفلاسفة المعاصرون ومسألة مستقبل الدين (النقاش بين فاتيمو وروتي نموذجاً)-محمد الشيخ.
- تصوُّر فيتغنشتاين للاعتقاد الديني: بين منطق العقل ومنطق الإيمان - سعيد بنتاجر.
- الوحدة والتعدّد الثقافي بين المفهوم الإسلامي والمفهوم الغربي - سامي عطا عبدالرحمن.
- تأريخ الكلام و «تكليم» التاريخ : مقاربة معرفية للفكر الخلدوني - الحسان شهيد.
- إشكالية (السيادة العليا في الدولة) بين الفكر السياسي الإسلامي والفكر السياسي الحديث - عبدالقوي حسّان.
- جدلية الأخلاق والسياسية في بناء نظرية الدولة عند عبدالله العروي - محمد بنيونس.

دراسات

- النبوة والرسالة: مقاربة في المفهوم القرآني - عبدالرحمن حللي.
- الصراع المذهبي ورهاناته في سيرة الطبري - محمد بكور.
- التصور القرآني للعيش الآمن بين الآدميين وتطبيقاته النبوية - رشيد كَهُوس.
- الصَّرْفَةُ وإعجاز القرآن الكريم - سامي عطا عبدالرحمن.

وجهات نظر

- علاقة المنطق بعلم الكلام - يوسف مدراري.
- المصطلح في علم الكلام - محمد بنعمر.
- تحولات وتحويلات التراث السياسي العربي : أنموذج نص «الخلافة» - رضوان السيد.

آفاق

- العلوم الإسلامية ورسالتها الحضارية: أنموذج البيروني ومكتبته - عبدالله بن محمد السالمي.
- ضحايا حرية الفكر (جيوردانو برونو) نموذجاً - أمل مبروك عبدالحليم.
- تراث شعراء الرسول -صلى الله عليه وسلم-(نظرة على المصادر) - فيصل الحفيان.

مدن وثقافات

- المسلمون في بولندا: قراءة في صفحات منسيّة - الأمين عبدالحميد أبو سعدة.

الإسلام والعالم

- طريق الحرير، طريق الفضة - بيتر فرنكوبان.

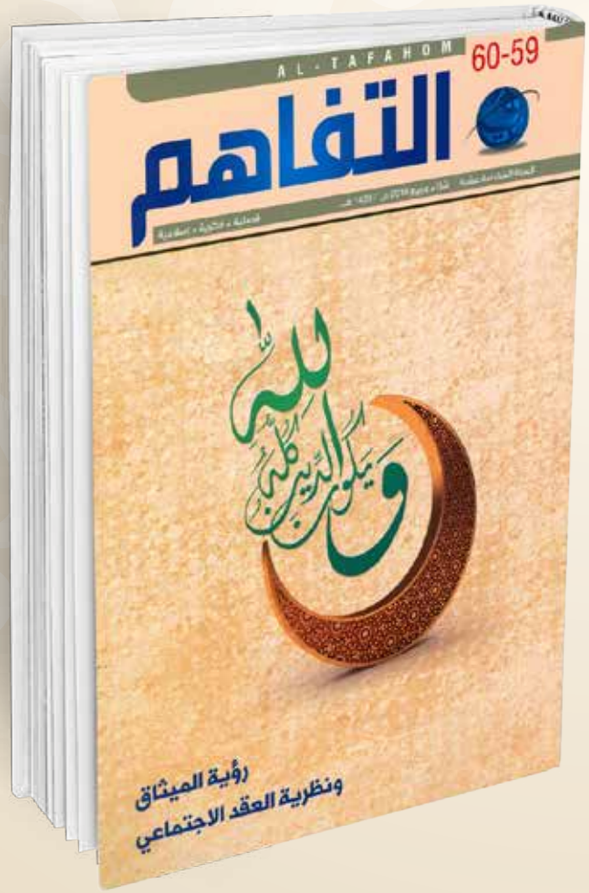

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.

مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ - ٢٤٦٤٤٠٣٢ ٩٦٨+ ، فاكس : ٢٤٦٠٥٧٩٩ ٩٦٨+

البريد الإلكتروني : tasamoh@gmail.com - al.tafahoom@gmail.com - www.altafahom.net